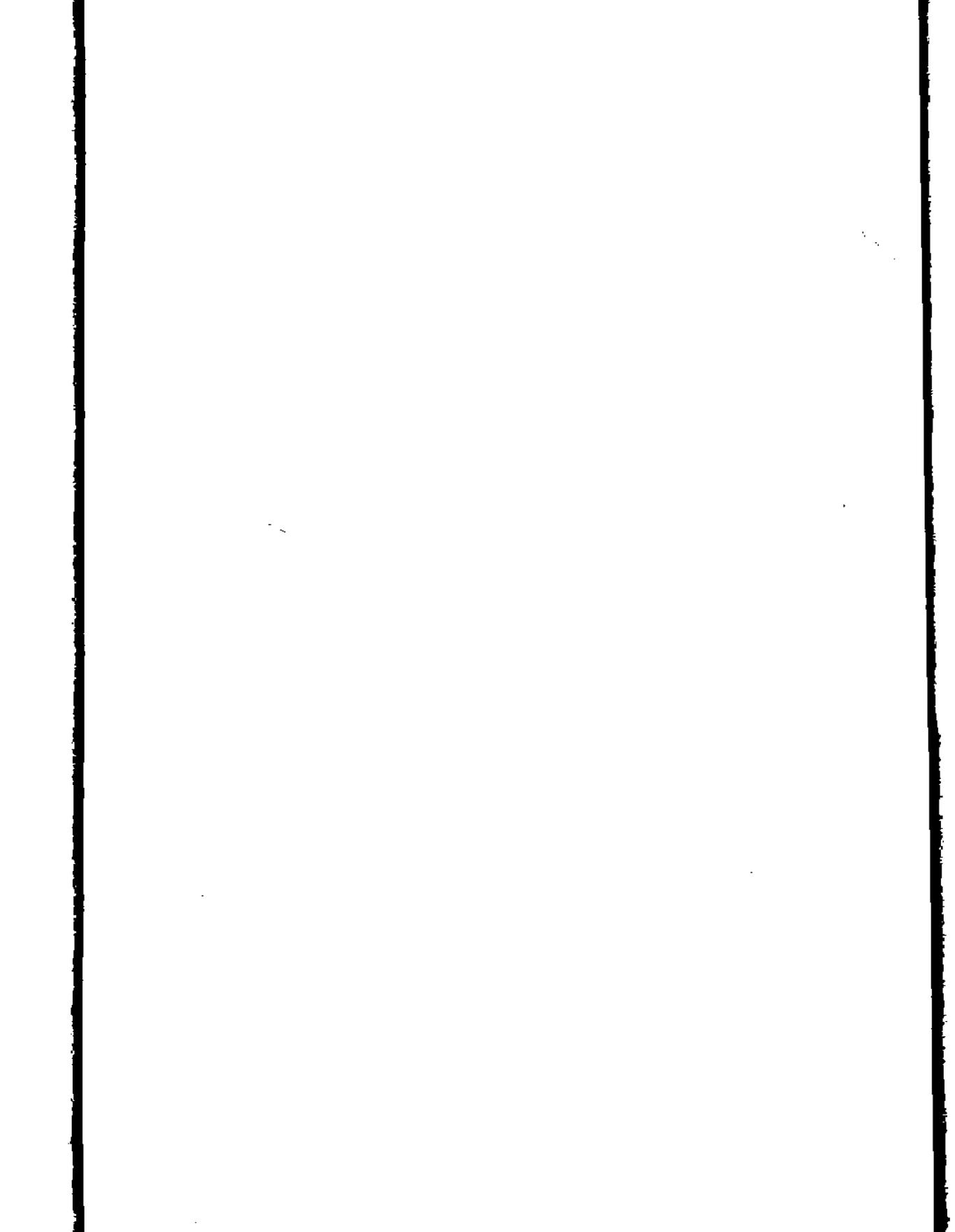


البَابُ الخَامِسُ  
الحياة الروحية في مدرسة الشام  
في القرنين الأول والثاني الهجريين



## الفصل الأول

### سهام مدرسة الشام الزهدية

لقد ذهب معظم الباحثين الأوربيين من مستشرقين وغيرهم إلى أن الحياة الروحية في مختلف أقاليم الإسلام قد اتصلت بعنصر خارجي . كأن الإسلام لم يأت أبداً ، وكان أبناء الإسلام لم يقوموا بدورهم على مسرح الروح . كان كل ما يتوقون إليه أن يتلمسوا المصدر الخارجي فيتلقفوه ، ويعيشوا في أضوائه ، سواء أكانت هذه الأضواء واضحة أم باهتة ، زاهية أو معتمة . فدخلوا سرايب الهنود الروحية في البصرة ، فأخذوا يعيشون في ظلال اليوجا والجينا ، ويقلدون الجيمتوسوفيست ويتعبدون على براهما وبوذا ... ويطلقون البخور الهندية ، ويتعلقون بالمسبحة السندية ... عجباً ! وكأن لم يكن لهم قرآن يقرءونه ، ويتمقونه ، وأحاديث في أعماق الزهد ، ومناجاة الروح ومناجاة الآلهة يلجأون إليها . وكأن لم يكن بين صحابة نبيهم من ضربوا أعظم المثل في الزهد وكراهة الدنيا ... وفي الكوفة تلمس رواد الروح التراث الآرامي ، ويقول المستشرقون إن هذا التراث كان قد تكون في قرون طوال قبل الإسلام ، وقد تكون في ثنابا مزيج غريب من الفلسفة الغنوصية اليونانية أفلاطونية وأرسططاليسية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية محدثة مرتبطة بالطب وعلوم الصنعة من ناحية وبالأساطير الفارسية والكلدانية . والنهم هذا الغنوص في أحياء الكوفة كل حياة للروح لدى المسلمين . ورأى البصريون والكوفيون رهبان النصارى يلبسون الصوف ، فلبسوا الصوف أيضاً . هذا ما رآه المستشرقون والباحثون الأوربيون . وما أحققهم جميعاً . ثم تنتقل الآن إلى مدرسة الشام ... وكان لا بد لهم أن يتلمسوا المصدر أيضاً - كانت الشام خالصة للمسيحيين قبل الإسلام ، وكان فيها كل الفرق المسيحية ، من فرق تنابع فلسفة المسيحية ، وفرق هرطوقية . دخلت فيها أيضاً كل الثقافات السابقة - وأكلها الغنوص أكلا ، والتحم بها الفكر الشرقى ، كما انتشرت القبالة اليهودية تعتمد المسيحية اعتصاراً . وانتشرت الأديرة ، وكانت آراء القديسين بازيل وإفرايم وغيرهما ... تنتشر في الأديرة محتلطة بأقوال البرديصانية والمرقونية إلخ . . . وتراث الآباء ، آباء الكنيسة ، فيه من العناصر المختلفة المتباينة ، وفيه من الأسرار الغامضة ما يجعل الباحث يقف حائراً ما هي الحقيقة المؤكدة في كل هذا . ولكن هؤلاء المستشرقين والباحثين في الدراسات الإسلامية من الأوربيين يرون أنه حين أتى العرب من أعماق

صحرائهم ، لم يفعلوا شيئاً ، سوى أن قفزوا أيضاً على الأديرة والرهبان ، وفتحوا الكنائس ، يقرءون ما فيها من حكمة الروح ، ويعتبرونها قانونهم الأزلى ...  
وما أحق هؤلاء الباحثين أيضاً .

لقد تناسوا الخصائص الفكرية والروحية لكل حضارة من الحضارات ، وأن لكل حضارة ملامحها الفكرية والروحية التي تخرج من أعماقها ، وأن كل حضارة تمشي في سيرها بقوام معين ، منكفئة على ذاتها ، تستلهم الداخل وتستنبطه ، حقاً . قد يعلق بها شوائب خارجية ، ولكنها لا تنفذ إلى «الكنه» إلى «الجوهر» التي اتخذته ، أو التي «اتخذها» لها ، ركيزة وأساساً . ولولم يفعل الباحث المخابذ هذا ، لما كانت هناك سوى نسخة واحدة من الحضارة ، وأقصد بالحضارة هنا ، المعنى الواسع لها ، الروح والفكر والمادة . ولكانت المسيحية وحضارتها مزيجاً من اليونانية والهندية والفارسية ، ولكانت اليونانية وحضارتها من قبل مزيجاً من الهندية والبابلية والصينية ... ولكانت ... ولكانت . ولم يحدث هذا قط ، بل جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً ، يختصان بها ، ويختصان بها وحدها .

وقد رأينا في كل من البصرة والكوفة ، كيف صدرت الحياة الروحية عن أساس إسلامي ، يوغل في الإسلامية ، ويحاول أن يستطن ويستلهم ويستنبط روح الإسلام، وروح الإسلام هو في قرآنه وحديثه وسنة صحابته، وكذلك حدث في الشام ، ارتبطت الحياة الروحية بكل هذا . وأخذت تعمقه ولا ضير بعد ذلك إن تشابهت بعض هذه الحياة الروحية مع مثيلاتها في المسيحية ، أو أخذت بعض هذه العناصر . لقد قلت مراراً من قبل إن الدينين أتيا من معدن واحد ، أعلن الاثنان أنها وحي إلهي ، وأنها نزلا من السماء ، فلا بد وأن تتشابه أصولها ، وبخاصة الأخلاقية والروحية ، والقرآن يعلن في كثير من المواضع أنه أقي مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، والدراسة العلمية المقارنة للدينين تثبت أنها لا يختلفان في النظريات الأخلاقية أدنى اختلاف . وجوهر الزهد والتصوف هو الأخلاق . ولكن لكل دين مجتمعه ونسقه . أما إن الشخصيات التي أثرت في الحياة الروحية في الشام ذات ماضٍ مسيحي - وأن أهم هذه الشخصيات هي شخصية تميم الداري . فهو قول داحض متهافت . إن مسيحية تميم الداري مشكوك في صحتها . لقد يتلقف أصحاب الأثر والمؤثر المسيحيين أخباراً غامضة تذكر أن تميمًا كان مسيحيًا قبل إسلامه ، وبنوا على هذه الأخبار الغامضة ، نظريات ومذاهب . ثم إنه لا يقدر في إسلام تميم الداري كونه مسيحيًا قبل إسلامه ولو افترضنا أن مسيحية تميم الداري قد علق بعض عناصرها بإسلامه ، فلا نرى في الشام ولا في غيرها آثاراً في غيره من الزهاد .

## ١-الإسرائيليات :

ويؤدى هذا بنا إلى بحث مسألة الإسرائيليات . وحقا : لقد انتشرت في الإسلام - عن طرق متعددة . قيل : إن هذه الإسرائيليات أتت من الشام ، كما قيل إنها أتت من اليمن . وكان مصدرها كعب الأخبار في الشام ومصدرها في اليمن عبد الله بن سبأ ولكننا - كما سنرى بعد- أن كعب الأخبار قد عاش في المدينة ، ونمت أعين عمر بن الخطاب . وقيل : إنه كان يستمع لأخبار الأمم الماضية منه ، كما كان يستمع إلى تفسير للآيات القرآنية ولما فيها من أحداث في ضوء هذه الإسرائيليات . ولكن عمر كان بالمرصاد لما يخالف القرآن -روحه ونصه . وقد ترك لنا عن كعب الأخبار الكثير من الإسرائيليات ، ولا نرى فيها أبداً أشياء تمس عقيدة المسلمين ، بل تؤيد نصوصهم . أنا لا أنكر أنه في عصور متأخرة ، وبخاصة القرن الثالث الهجري ، انتشرت إسرائيلييات تحمل في أعماقها فلسفة غنوصية ، تحمل تفسيرات فيلون ، وتقذف بالآراء القبالية في العالم الإسلامي وتختلط هذه الإسرائيليات الغنوصية بآراء الصوفية الفلاسفة ، وتدخل في نطاق نظرياتهم . . . . . وحققاً إنه انتشرت إسرائيلييات تدعو إلى التجسيم في العالم الإسلامي ، ممتزجة بعناصر ثنوية وتفسر في عدد من المجسمات . . . . . ولكن لم يحدث هذا في القرن الأول ولا في معظم عقود القرن الثاني ، كان المسلمون في هذين القرنين يتدبرون القرآن ويحاولون تفسيره ، وانقسموا في هذا إلى طوائف : طائفة تندبره للفقهِ وللأحكام ، وطائفة تندبره لمعرفة أسرارهِ في البلاغة والبيان . . . . . وطائفة تنفحصه للعبادة وللتعبد- وطائفة أخرى شغلت بما فيه من أخبار الأمم الماضية ، وكان الكثير من المسلمين قد أولعوا بسماع أخبار الأمم الماضية وبخاصة إذا أبدت النصوص القرآنية . ومن المهم أن نقرر أيضاً أن كثيراً من هذه الإسرائيليات لم تكن صادرة عن نصوص إسرائيلية أو مسيحية معتمدة لدى يهود أو مسيحيي هذا العصر ، بل هي أقوال وآثار أنكرتها الكنائس الرسمية المسيحية والجماع الرسمية اليهودية .

والآن نتقل إلى الشام . . . . . وقد دخلها المسلمون واستقروا فيها وأتى إليها مجموعة من زهاد الصحابة - كعماد بن جبل ، وقد توفى فيها ؛ ثم أبو ذر الغفاري - وقد اختلف مع حاكمها معاوية بن أبي سفيان وسيره إلى مكة . . . . . فهل كانت طبيعة الشاميين تختلف عن الكوفيين والبصريين إذا كنا بصدد حياة الروح لدى المسلمين .

إننا نسمع أن معاوية بن أبي سفيان قد حكمها ثلاثة وأربعين عاماً . وقد أسكرها بالترف فنام الشاميون ملء الجفون . وليس هذا بحق . حقاُ إن معاوية اشترى رؤساء القبائل ، وغمرهم بالأموال ، وأفسد ذم البعض وضمايرهم فسيروا المقاتلة له ، وعبأوا الجيوش يحاربون في سبيله ، أو في سبيل

أطعامهم ، ولكن لا يمنع أبداً من انقذاح حياة الروح في مجموعة إنسانية ، فساد حكامها ، وفق أمرائها إن العكس هو الذى يحدث تماماً . . . إن حياة الروح هنا تنشأ وتزهو .

## ٢ - عقيدة الجبر :

ولقد كان من أهم سمات الحياة الروحية في الإسلام : عقيدة الجبر . وعقيدة الجبر ستكون عقيدة الصوفية جميعاً على اختلاف مشاربهم ومنازعاتهم . ولقد قيل إن عقيدة الجبر نشأت - أول ما نشأت - في أرباض الشام ، الاستسلام المطلق لما توجه الإرادة الإلهية ، ولقد قيل : إن الأمويين قد عاونوا على نشر هذه الحقيقة ، إذ فيها تثبيت لأقدامهم ، وإيحاء للمسلمين بأن حكمهم للمسلمين - وهم أبناء الطلقاء وأعداء الرسول القدامى . إنما هو قدر من الله ، كعبه الله عليهم في علمه القديم السابق ، إن صح هذا - ولعل ما يؤيده محاربة الأمويين للقدرين - فإن فيه دلالة على أن الأمويين - قد عاونوا - من طريق غير مباشر - على نشر روح الزهد في الشام ، على خلاف ما يقوله بعض المؤرخين من أنهم دعموا حياة الترف والبذخ ، ولكنني لا أرى أبداً أن عقيدة الجبر قد نشأت في الشام عن هذا الطريق . لقد كانت عقيدة الجبر منتشرة في كل مدارس الروح في العالم الإسلامي ، إنها صفة لكل عابد ومتزهد ومتصوف خلال الأجيال وفي كل الأمم على اختلاف أنواعها ، ثم إن عقيدة الجبر كانت راسخة في البصرة كما كانت راسخة في الكوفة ، والمدنية ، ولدى كل طوائف العباد . . . لقد انحنى العباد جميعاً للمشيئة الإلهية وللأمر الإلهي في كل مكان وزمان ، قد يقال : إنها كانت أظهر عند المسلمين لدى أهل الشام فليكن . ولكنني لا أعرض هنا لحياة المسلمين العقلية والفكرية ، إنما أعرض لتاريخ الحياة الروحية الإسلامية ، وهي في كل أقاليم العالم الإسلامي .

## ٣ - الجوع :

ثم نلاحظ أيضاً أن عباد الشام قد عرفوا باسم الجوعية . يقول الكلاباذي « وأهل الشام سموهم جوعية ، لأنهم ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة - كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « بحسب ابن آدم أكالات بقم صلبه »<sup>(١)</sup> ، وقد رأى الدكتور الشيبى أن الجوع في الشام كان يقابل الصوف الذى كان شعار الزهد في الكوفة ، والحب والبكاء اللذين وجدناهما من أبرز أوصاف الزهد في البصرة ، ويعلل هذا بأنه « قديمو الجوع غربياً من حيث إنه نقطة تجمع المثل الزهدية في الشام ، ولكن هذه الغرابة تتبدد بمعرفتنا أن الشام كانت ريفاً لا يجوع فيه إنسان ، فكان الشيع ،

(١) الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦ .

يورث اللامبالاة فيها ، وينأى بالنفس عن إدراك ما يحيط بها من مظالم ، فيقوم الشيع سدا يمنع الناس من التفكير في غيره<sup>(١)</sup> وفي الحقيقة إن مرد الجوع في الشام لم يكن لهذا ، إنما كان جوع العباد الذين لا يأبهون بالحاكم ، ولا بحكمه ولا بسطوته ، لم يفكروا في مظالم الحكام بقدر ما فكروا في مظالم النفس المرتبطة بالجسد . فأجاعوا الجسد . لقد كان هذا سياق تفكيرهم .

ولقد كان أول من دعا إلى الجوع في الشام رجل - وقف - مع عثمان شيخ بني أمية في المدينة في نزاعه مع أبي ذر الغفاري ، وهذا الرجل هو كعب الأحبار . ولقد وصل كعب الجوع بمحبة الله . يقول : « إني لا أجد نعت قوم يكونون في هذه الأمة بمثلة الرهبانية ، قلوبهم على نور ، تنطق ألسنتهم بنور الحكمة ، تعجبت الملائكة من اجتهادهم واتصالهم بمحبة الله : قيل : يا أبا إسحق من هم : قال : قوم جوعوا أنفسهم لله وظمؤوها ، ينادى يوم القيامة : ألا لبصم أهل الجوع والظلم ، فيلتقطون من بين الصفوف ، فيؤتى بهم إلى مائدة منصوبة ، لم تر العيون ، ولم تسمع الآذان بمثلها ، فيجلسون عليها والناس في الحساب<sup>(٢)</sup> » ، ثم يورد إسرائيلية أخرى يقدر فيها الجوع والجوعية في أمة محمد . يقول كعب « قال موسى عليه السلام : إني لأجد في الألواح ، صفة قوم على قلوبهم من النور ، مثل الجبال الرواسي ، تكاد الجبال والرمال أن تحرهم سجدا من النور . فسأل ربه وقال : اجعلهم من أممي . قال يا موسى إني اخترت أمة محمد وجعلتهم أمة الهدى . وهؤلاء طوائف من أمته . قال : يا رب : فيما بلغ هؤلاء؟ حتى أمر بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وأبلغ نعمتهم . قال : يا موسى إن الأنبياء كادوا أن يعجزوا عما أعطيت أمة محمد ، يا موسى : بلغوا أنهم تركوا الطعام الذي أحللت لهم رغبة فيما عندي ، وكان عيشهم في الدنيا العلق من الخبز ، والخلق من الثياب ، أيسوا من الدنيا وأيست الدنيا منهم ، أقربهم مني وأحبهم إلى أشدهم جوعا ، وأشدهم عطشا ، يا موسى لم يتقرب أحد إليّ بشيء أفضل من كبد عطشت وجاعت . يا موسى ليس للجوع عندي ثواب إلا الجنة ، يا موسى اصبر وتوكل على ، فهو أشرف العمل عندي ، يا موسى من جاع وعطش في الدنيا من خشيتي ، شيع وروى في الآخرة ، يا موسى . . . قل لبني إسرائيل : يتقربون إلى بذوب الشحوم واللحوم في الدنيا بقله الطعام ، فإنها أحب الأشياء إليّ ، يا موسى طوبى لمن صحبهم وصحبوه ، أقربهم مني ، وأبغض الناس إليّ من أبغض جاثعاً عرباناً من مخافتي<sup>(٣)</sup> . ولقد أوردت النص كاملاً ، لكي يتبين لنا أن الصرخة الأولى التي مجدت « الجوع » في الشام إنما صدرت من رجل وقف في وجه أبي ذر - وهو يعرض لمظالم

(١) الشيعي ج ١ ص ٣٣٨ .

(٢) أبو نعم : الحلية ج ٥ ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٣) أبو نعم : الحلية ج ٥ ص ٣٨٩ .

حكّام بنى أمة ، ويطلب توزيع المال على الفقراء . فلم يكن الجوع إذن موجهاً نحو الحكّام ، ولا مطلباً للتضكير في مظالمهم . وأن المثال الذى أورده الدكتور الشيبى عن أبى سليمان الداراني شيخ مدرسة الزهد في الشام ، ليثبت أن الجوع عنده مرتبط بمحاربة الجسد ومحاربة اللذة الجنسية بالذات . فهو باب إذن للتفرغ للعبادة وللتخلص من أوزار الجسد والوارد في المحبة الإلهية ، وسيتضح هذا حين نبحث في آثار أبى سليمان الداراني نفسه وكما شاع في البصرة وفي الكوفة . . . الخوف والبكاء كان الأمر كذلك في الشام ، وأخبار عباد البصرة مليئة بقصص بكائهم وخوفهم ، ووجوههم الضامرة ، وبحارى الدموع - وقد ظهرت على هذه الوجوه .

#### ٤ - المحبة :

وأنقل إلى العنصر الثالث من عناصر هذه المدرسة ، وهو عنصر المحبة ، وسيتضح تماماً في أقوال أبى سليمان الداراني نفسه ، وأقول تلميذه أحمد بن أبى الحواري وزوجه رابعة بنت إسماعيل . ومدرسة الموصل - وكانت الموصل إبان ذلك الوقت تعتبر من توابع الشام ، لقد ظهرت نظرية المحبة في مدرسة الشام في صورة عذبة نقية ، وقد أتتها بلا شك من أرباض البصرة ، أو أثرت فيها ، بل إن أبى سليمان الداراني كان عراقى الأصل ، من واسط .

#### ٥ - القلق :

وأخيراً يتبين لنا عنصر «القلق» . كان القلق يسود عباد الشام بصورة أشد وأقوى مما كان في الكوفة وفي البصرة . فلعل العباد هنا في الشام أيقنوا أن حكّامهم أخذوا الأمر من أصحابه ، ولكن هؤلاء الحكّام الظلمة الفسقة - كانوا يدافعون عن بيضة الإسلام ، ويفزون بلاد الكفرة ويقنمون البلاد البعيدة باسم الإسلام . كانوا يفعلون هذا في حقيقة الأمر . للمغنايم والأسلاب ، ولكن الإسلام كان يسير ظافراً حيثما ساروا . . . وساد العباد القلق ، كان عليهم اتباعاً لسنة الإسلام - أن يربطوا وأن يحاربوا ، وامتشهد العدد الكبير منهم في المغازى . ولئن يفعلون هذا . للدين أم للدنيا . . . وما أصدق ما قال عبد الله بن عبد الأعلى - كما لاحظ الدكتور الشيبى بحق - دخلتها جاهلاً ، وأقت فيها حائراً وأخرجت منها كارهاً<sup>(١)</sup>، وكان عبد الله بن عبد الأعلى أول من تكلم عن الحيرة . وستكون الحيرة مقاماً من أكبر مقامات الصوفية فيما بعد . وسيضع الصوفية حديثاً يدعى هذا المقام « اللهم زدني فيك تحميراً » . وأثر القلق - وهذا ما لا نراه أبداً في البصرة ولا في الكوفة ، ولا في بغداد فيما بعد - في الخلفاء

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٣٨ .

أنفسهم . فأعلن الخليفة السفيفي الثالث ، معاوية بن يزيد ، وتحت تأثير أستاذه عمر المقصوص الزهد الحقيقي ، الزهد في إمارة المؤمنين وقد قتل أبوه من قبل ابن فاطمة العظيم لأجلها . وأعلن « أنفوز بنو أمية بجلاوتها وأبوه أنا بوزرها - ومنعها أهلها كلا - إني لبريء منها » وقد ذكر عمر المقصوص أن معاوية ابن يزيد كان مجبولا ومطبوغاً على حب علي بن أبي طالب . وقد أصابه القلق النفسى العنيف . فترك الدنيا ، وقد قيل إن الأمويين قد سموه ، كما قتلوا عمر المقصوص . واعتبروا موقف معاوية إنما كان بسبب هذه البدعة الزهدية التي غرسها فيه أستاذه . ويقال أيضاً إن الابن الآخر ليزيد وهو خالد بن يزيد ، وكان أول من تعاطى علوم الصنعة ، كان زاهداً ويرجع الشيبى أن أبا هاشم الكوفى هو أول من تسمى باسم الصوفى الكوفة<sup>(١)</sup> بل يرى بعض الباحثين أن أبا هاشم هو أول من تسمى باسم الصوفى في الإسلام هو خالد بن يزيد . ومن المرجح أن يكون خالد بن يزيد قد ترهد ، وبخاصة أنه سلب الخلافة ، ثم إن الاشتغال بالكيمياء كان من صفات الصوفية ، رأينا هذا في جابر بن حيان ، كما ستره في ذى النون المصرى ، والحلاج والعدد العديد من الصوفية . ولكننى أشك تمام الشك في أن خالد بن يزيد هو أبو هاشم الصوفى - كما سأبين فيما بعد ، ثم ظهر عمر بن عبد العزيز ، وقد اعتبره الكثيرون خامس الخلفاء الراشدين لعدالته ولزهده . وكان القلق أيضاً يسود حياة هذا الخليفة الأموى ، حتى انتهى به إلى الزهد المطلق . وقد أجمع الأقدمون على أنه كان صورة « من عمر بن الخطاب » ، وقد كان ينتسب إليه من ناحية أمه ، ويرى الدكتور الشيبى من المحدثين أنه كان صورة من علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> وكلا الأمرين كما سنرى بعد صحيح . ثم نجد صورة حية زاهدة في خليفة أموى آخر هو « يزيد بن الوليد » ويقول المسعودى « والمعتزلة تفضل في الديانة يزيد بن الوليد على عمر ابن عبد العزيز »<sup>(٣)</sup> .

وكما ارتبطت المدارس المختلفة بصحابة كبير من العباد ، فارتبطت مدرسة البصرة بأبي موسى الأشعري والكوفة بعلى بن أبي طالب من ناحية وعبد الله بن مسعود من ناحية ، ارتبطت مدرسة الشام بصحابة من كبار العباد وهو أبو الدرداء . وكان أبو الدرداء أيضاً من كبار القراء : العباد الأوائل في الإسلام ، سدنة الروح في مطلعته .

(١) نفس المصدر: ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٢ .

## ٦- أثر أبي الدرداء في مدرسة الشام

كان أبو الدرداء عويمر بن زيد من خاصة أصحاب رسول الله ومن الأنصار ومن كبار قراء المدينة . كان تاجراً قبل إسلامه ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أسلم وأقبل على مزاولته تجارته « ولكن صوتاً داخلياً انبعث فيه ، جعله يهجر تجارته ، ويتفرغ للعبادة . . . وهو يحدثنا عن هذا التحول ، فيقول : كنت تاجراً قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث محمد ، زالت العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا ، فأخذت في العبادة وتركت التجارة . . . ولكنه لا يحض الناس جميعاً على أن يفعلوا ما فعل . . . » ما أقول إن الله عز وجل لم يجعل البيع ، ولم يحرم الربا ، ولكن أحب أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله<sup>(١)</sup> وهذه هي صورة العابد الإسلامي في مطلع النبوة . . . وكان على أبي الدرداء أن ينضم لطائفة القراء الرواد الأولين للروح في الإسلام . منقطعاً للقراءة والعبادة . ويقابله أحد المنافيين في المدينة فيقول له « يا معشر القراء . ما لكم أجبن منا وأجمل إذا سلّمتم وأعظم لهما إذا أكلتم » فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً . وعلم عمر بن الخطاب بالأمر ، فسأل أبا الدرداء ، ولكن القارئ العابد يقول « اللهم غفرا ، وكل ما سمعنا منهم تأخذهم به » وكأنه قد أراد أن يعفو عن الرجل . ولكن عمر يذهب إلى هذا المناق ، ويأخذ بخناقه ويقوده إلى الرسول . ويقول الرجل معتدراً « إنما كنا نخوض ونلعب » ونزل الوحي « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب<sup>(٢)</sup> » وإذاً فقد نزل القرآن في هذا العابد القارئ أبي الدرداء وأقبل المسلمون إلى الشام غزاة فاتحين . وكان من جملة الجيش أبو الدرداء . أرسله عمر بن الخطاب ليكون قاضياً على دمشق . وغزا المسلمون قبرص . وفتحوها . وأتى بأهلها أسارى . ورآهم أبو الدرداء باكين . . . وكان المسلمون في فرح عارم لنصرهم ولكن أبا الدرداء يتزوى في ركن قصي . . . باكياً . لذل المغلوب ويمر به جبيرين نفي . فيراه وهو يبكي فيسأله « ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله » فبرد أبو الدرداء « ويحك يا جبير . ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره . بينا هي أمة قاهرة ظافرة لهم الملك . تركوا أمر الله فصاروا إلى ما تولى<sup>(٣)</sup> » وتلك لمحة من لمحات العباد .

واستقر المسلمون في الشام ، وازدهرت حياتهم ، وأنتهم الغنائم من كل صوب . ورأى أبو الدرداء أهل دمشق يتبارون في الثراء ويتقلّبون في النعم . ويهجرونه هو « صاحب الرسول » فنأدى فيه « يا أهل

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٢٣ .

دمشق . أنتم الإخوان في الدين والجيران في الدار ، والأنصار على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتي ، وإنما مؤونتي على غيركم ، مالي أرى علماءكم يذهبون وأرى جهالكم لا يتعلمون ، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به وتركتم ما أمرتم به ألا إن قوما قد بنوا شديداً ، وحملوا كثيراً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح بنيانهم قبوراً وأملهم غروراً وجمعهم بوراً . . . ومضى يلقي إليهم بلمحاته ، ويذكرهم بالفناء «عدوا أنفسكم من الموتى» . «يا ابن آدم ، إنما أنت أيام ، فكلما ذهب يوم ، ذهب بعضك ، يا ابن آدم . إنك لم تنزل في هدم عمرك من يوم ولدتك أمك»<sup>(١)</sup> «لو ثلاث خلال لأحببت أن لا أبتى في الدنيا . . . وضوع وجهي للسجود لحالتي في الليل والنهار يكون مقدمة لحياتي ، وظمأ المواجر ، ومقاعدة يتفقون الكلام ، كما تنتفي الفاكهة»<sup>(٢)</sup> ، وتمنى ، كما تمنى العباد في البصرة أن يكون شجرة تعضد ثم توكل .

رأى أبو الدرداء الناس في دمشق - كما قلت - قد أقبلوا على الدنيا ، وتركوا العلم والعمل إلا قليلاً ، فكان يقول ، وقد نسب هذا القول إلى علي أيضاً «الناس ثلاثة عالم ومتعلم والثالث هرج لاخير فيه» . . . وكان يقول «إن أخوف ما أخاف ، إذا وقفت على الحساب ، أن يقال لي : قد علمت فما عملت» .

وكتب إلى صديقه القديم سلمان الفارسي «يا أخي ليكن المسجد بيتك» . ودعا إلى محبة الله ، فكتب إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري يقول «أما بعد . فإن العبد إذا عمل بطاعة الله . أحبه الله . حبه إلى خلقه»<sup>(٣)</sup> .

وكان يردد حديث الرسول «اللهم إني أسألك حبك ، وحب من يحبك والعمل الذي يبغيني حبك . اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسي وأهلي والماء البارد» .

ومر أبو الدرداء برجل مذنب والناس تسبه . فغضب وقال لهم «أرايتم لو وجدتموه في قليب . ألم تكونوا مستخرجيه . قالوا : نعم . قال : فلا تسبوا أحاكم . واحمدوا الله الذي عافاكم . فسألوه : ألا تبغضه قال إنما أبغض عمله ، فإذا تركه فهو أخي»<sup>(٤)</sup> . وهذا مقام صوفي حقيقي .

وأشار في أحاديثه إلى مقام الصبر والرضا والتوكل فكان يقول «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر والإخلاص في التوكل والاستسلام للرب عز وجل»<sup>(٥)</sup> .

(١) ابن الجوزي صفة ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢١٣ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ١ ص ٢٥٨ ، أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٢٢٧ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٢٢٥ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٢١٦ .

بل إن أبا طالب المكي ينسب إلى أبي الدرداء أنه وصف الأبدال . كما ذكر الزهد في الدنيا « وأنه معاينة الآخرة بالقلب - فيعمل لها الإنسان <sup>(١)</sup> » .

وأخيراً . . . دعا إلى الجوع . وقد رآهم يشبعون حتى البطر « وإني أخاف عليكم شهوة خفية في نعمة ملهية وذلك حين تشبعون من الطعام . وتجمعون من العلم » ولعله أول من لاحظ أن عباد الشام ينبغي أن يجوعوا . مقابلاً لشهوة الطعام التي وسمت الشاميين إبان ذلك العهد . ولعله أيضاً هو الذي دعا كعب الأخبار فيما بعد لأن يضع مصطلح الجوعية . ثم تصبح الجوعية وسماً على عباد الشام . وبعد : فقد كان أبو الدرداء شيخ قراء الشام وكانت القراءة حينئذ تعنى العبادة ، وقد قدم الرجل لنا لمحات جميلة - كما رأينا - وترك بعده امرأته أم الدرداء وقد تقدم إليها معاوية لخطبتها . فأبت كما أبت وأبو الدرداء حتى أن تزوج ابنتها من قبل لابنه يزيد ، وبالرغم من هذا . فإن يزيد بن معاوية ذكره يوماً فقال « كان والله أبو الدرداء من العلماء الحكماء . والذين يشفون من الداء <sup>(٢)</sup> » وقادت أم الدرداء حلقة العبادة بعده .

ومن العجب أن تلامذته من القراء لم يشتركوا في حرب صفين . وعادوا عنها وبخاصة تلميذه الكبير : أبو مسلم الخولاني وقد قلدوا في هذا قراء البصرة والكوفة . كما روى أحاديثه مجموعة كبيرة من الزهاد كسفيان الثوري والفضيل بن عياض . وقد مات أبو الدرداء عام (٣١ هـ) في خلافة عثمان وقدر له ألا يرى الفتنة - بين علي ومعاوية .

#### ٧- كعب الأخبار :

ولم تلبث الفكرة الجوعية - أن ظهرت على يد شخصية من أغرب الشخصيات التي ظهرت في الإسلام - وهي شخصية كعب الأخبار . وقد وصفه ابن الجوزي بأنه « كعب الأخبار بن ماتع - ويكنى أبو إسحق - من حمير من آل ذي رعين » ويبدو أنه أتى من اليمن . وكان يهودياً . فأسلم - وقدم إلى المدينة . وحدث عن عمر بن الخطاب وصهيب وعائشة وكان أثيراً لدى عمر بن الخطاب ثم لدى عثمان بن عفان . وخرج إلى الشام فذهب أول الأمر إلى بيت المقدس وهناك قابل العابد البصري عامر ابن عبد الله <sup>(٣)</sup> ونحن نعلم أن عامراً كان قد نفي إلى بيت المقدس . فسكن حمص ومات بها سنة اثنتين وثلاثين في خلافة عثمان . هذا هو التاريخ الظاهري لهذا الرجل فهل كان هناك جزء باطنى داخلى يكن

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ٥٢٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٣٨٠ .

في حياته وفي كلماته . لقد كانت اليهودية في حمير - كما هو معروف . واشتهر من بين هؤلاء اليهود آل ذى رعين . وكان منهم ملوك حمير . . . وهنا نتساءل : هل كانت اليهودية في حمير - يهودية كتابية ساذجة ، نصية تستند فقط على التقليد ، أم كانت يهودية قبالية ، تسودها الأساطير ، وتنفذ في أعماقها الحروف ، وتعمل أيضاً في الصنعة ، وبخاصة أننا نجد في أخبار جابر بن حيان نفسه ذكراً لأستاذه « حري الحميري » وكان كعب الأحبار على معرفة بعلم النجوم . وقد حاول عبد الله بن عمرو ابن العاص أن يتعلم منه هذا العلم<sup>(١)</sup> ونهاه كعب . وقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص يدعى التزهّد ، ويتنمى به . ويبدو أنه وجد ضالته في كعب ، فكعب أيضاً يعلن التزهّد ، ولكنه في الوقت نفسه عالم بالنجوم ، ويكثر التنبؤ . وقد تنبأ لعمر بن الخطاب بمقتله كما نهاه عن الخروج إلى العراق « إن بها تسعة أعشار السحر ، وبها فسقة الجن ، وبها الداء العضال<sup>(٢)</sup> » وهذا يدل على معرفته بالسحر ، ووجوده فعلاً في حلقات متعددة بالعراق . وكان كعب يتكلم عن الفتنة الآتية ، ويتنبأ بها . ونراه يقف بجانب عثمان في نزاعه مع أبي ذر ، فهل كان يعمل لهذه الفتنة الآتية من هذه الناحية ، بينما يعمل عبد الله بن سبأ اليهودي اليمنى الآخر إن صح وجوده - في الناحية الأخرى . هذا يشعل الفتنة للعثمانية وللأموية وذلك يشعل الفتنة لعل ولبنى هاشم . وستعيش أسرة كعب في الشام بعد في خدمة الأمويين كما نجد في أخبار الأمويين أنفسهم ذكراً لابن زوجة كعب اليهودية ، وقد كان يهودياً يعمل في السحر والتكهن والطلسمات ، ويتصل بخالد بن يزيد بن معاوية وأولاده ، لعل هذا أن يفتح الباب أمام شباب الباحثين لكي يتعرفوا الصلة بين التصوف والكيمياء في أول نشأة التصوف في العالم الإسلامي . . .

وأياً ما كان الأمر ، فقد حمل كعب الأحبار أو حملة مؤرخو الزهد والتصوف : الكثير من بذور الزهد والتصوف . ولست أود أن أخوض في إسرائيليات كعب فقد حمل بلا شك إلى قلب العالم الإسلامي ، الكثير من الأخبار عن موسى وعن عيسى كما كان أول من نشر أحاديث التجسيم « ما من ليلة إلا والحبار تعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : ألا من سائل فيعطى ، ألا من تائب فيتاب عليه ، ألا من مستغفر ، فيقول . . . . . إلخ<sup>(٣)</sup> » وقد أثرت هذه الإسرائيلييات وغيرها في المشبهة والمجسمة - منذ مقاتل بن سليمان إلى ابن تيمية ، ولعل هذا ما يفسر عطف ابن تيمية على كعب الأحبار وغيره من اليهود الذين أسلموا . فيقول عنهم « إنهم يحدثون بما عندهم من العلم ، وحينئذ يستشهد بما عندهم على

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣١ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٢٣١ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٤ .

موافقة ما جاء به الرسول»<sup>(١)</sup> وقد صيغت هذه الإسرائيليات في أحاديث نبوية ، كما كان كعب الأحبار أول من تكلم بالتفصيل عن الكرمي ووصف الجنة والنار ، وعذاب القبر . . . وغيرها مما دخل في التراث الحديثي . كان كعب الأحبار يفسر القرآن بالإسرائيليات وكان الصحابة يستمعون إليه وعين عمر بن الخطاب تراقبه : ولم يمس الرجل فيما ترك لنا من روايات التوحيد أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : وهذا ما كان يهتم به الصحابة الأولون . أما ما كان يلقيه من حكايات وروايات . فكانوا يستمعون إليها ، ترويحاً للنفس ، وتعطشاً لقصص الأقدمين . وقد اتهم العباد والزهاد والصوفية من بعد بأنهم ليسوا من أصحاب الحديث وإنما هم ( أصحاب حكايات ) ، ولعل كعب الأحبار قد استن لهم هذه السنة . ويذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ «أخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة»<sup>(٢)</sup>

وبعد : فما هي أهم الآراء التي نادى بها كعب الأحبار في محيط موضوعنا في هذا الكتاب . . . لقد تكلمنا من قبل عن إعلانه لفكرة الجوع - ولن نعود إليها الآن أما عن الزهد فقد كان كعب الأحبار من أوائل من نطقوا بمصطلح الزهد : نراه يقول «المؤمن الزاهد والملوك الصالح آمان من الحساب ، وطوى لهم كيف يحفظهم الله في ديارهم ، إن الله إذا أحب عبده المؤمن ، زوى عنه الدنيا ليرفعه درجات في الجنة ، وإذا أبغض عبده الكافر ؛ بسط له الدنيا حتى يسفله دركات في النار . . . . . كما يذكر أيضاً الصابرين والفقراء . ثم يردد كلمة الرهبان وثيابهم - أنا في مقام الذم . . . قال موسى عليه السلام «تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الجبارين ، والذئاب الضواري فإن أحببتهم أن تلعفوا ملكوت السماء ، فأميتوا قلوبكم لله»<sup>(٣)</sup> . وأنا في مقام المدح «إني لأجد نعت قوم يكونون في هذه الأمة بمنزلة الرهبانية قلوبهم على نور» ثم يستخدم في نفس النص الجوعية ، والمتحايين في الله . ثم يذكر أيضاً «الصابون والمسبحون والأوابون»<sup>(٤)</sup> . ويدعو إلى البكاء «ما من رجل بكى من خشية الله ، فتسيل دموعه على الأرض ، فتقطر فتصيبه النار أبداً حتى يرجع قطر السماء إذا وقع على الأرض من السماء» ، ويردد هذا ثانية «لأن أبكى من خشية الله ، فتسيل دموعي على وجنتي أحب الرب من أن أتصدق بجبل من ذهب»<sup>(٥)</sup> «كما يدعو إلى الذكر «أنيروا بيوتكم بذكر الله ، واجعلوا في بيوتكم حظاً من صلواتكم» ويستن سنة الصمت «قلة النطق حكمة ، فعليكم بالصمت»<sup>(٦)</sup> وأخيراً يعلن جوهر التصوف الحقيقي في الإسلام «لوددت أني كيش أهلي . فأخذوني فذبجوني ، فأكلوا

(٤) نفس المصدر: ج ٥ ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٥) نفس المصدر: ج ٥ ص ٣٦٦ .

(٦) نفس المصدر ج ٥ ص ٣٦٧ .

(١) ابن تيمية : نفضي المنطق ص ٩٣ .

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٣٦٥ .

وأطعموا أضيافهم»<sup>(١)</sup> وهذا مقام ذبيح إبراهيم، وسيسود التصوف بعد . بل هناك احتمال أن كلمة التصوف كما ذكرنا من قبل قد اشتقت من صوف كبش إبراهيم . وتكلم كعب الأحبار أيضاً عن أسماء الله واستخدامها في الدعاء . أو بمعنى أدق ، كان من أوائل من تكلموا عن الاسم الأعظم<sup>(٢)</sup> كما كان أيضاً وأخيراً : يقول الذهبي إنه « من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب »<sup>(٣)</sup> . . . . ويذكر أبو الدرداء كعباً فيقول « إن عند ابن الحميرية لعلماء كثيراً »<sup>(٤)</sup> « ولا شك أنه كانت هناك صلة بين الاثنين ، وقد عاشا في الشام .

وبعد : فإني أعتبر كعب الأخبار أيضاً - وبسبب يثته اليهودية الأولى - من أوائل من عرفوا علوم الكيالا اليهودية علوم النجوم وعلوم العدد وبعض إلام يعلم الصنعة ولعلنا نجد فيه أول مصدر لالتقاء علم الصنعة بالروحانيات . ولكن المسألة تحتاج إلى بحث أوسع .

#### ٨- نوف البكالي

وقد أثر كعب الأخبار وإسرائيلياته في عدد من عباد الشام والبصرة وكان من رواه مطرف بن عبد الله ابن الشخير العابد البصري أما عباد الشام الذين تأثروا به فمعهم نوف بن أبي فضالة البكالي<sup>(٥)</sup> والمعروف أيضاً بالشامي . وكان أكثر ما تركه نوف البكالي إسرائيليات ، وقد ذكر المؤرخون عنه أنه كان يقرأ الكتب . . . . وبدأ خلال هذه الإسرائيليات يتنبأ بالفتن المقبلة . . . . وكانت الفتنة بين المسلمين وقد أشعل أوراها فعلا بعض اليهود - قد بدأت وكان نوف يقول « إني لأجد أناساً من هذه الأمة في كتاب الله المتزل أقواماً يجتالون للدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن وقلوبهم قلوب الذئب . يقول الرب تعالى : فعلى تجترؤون وى تغترون ، حلفت بنفسى لأبعن عليهم فتنة ترك الحليم فيها حيران » ثم بدأت تلك الإسرائيليات على لسان نوف وغيره تقدرس جبل الطور ، وسيأخذ جبل الطور مقامه الكبير لدى الصوفية فيما بعد . يقول نوف البكالي « أوحى الله إلى الجبال - إني نازل على جبل منكم ، فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال : أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمر عليه » وعلى جبل الطور ، نودى موسى فقال . من أنت الذى تتادبنى . . . قال : أنا ربك الأعلى . ويذكر صاحب الحلية أن نوقاً كان يجتمع هو وعبد الله بن عمرو بن العاص . فكان نوف يحدث عن التوراة وعبد الله بن عمرو يحدث عن الرسول ومضى نوف

(٤) ابن مندع : طبقات ج ٧ ص ٦٤٤ .

(٥) نفس المصدر : ج ٦ ص ٤٨ ، ٥٠ .

(١) نفس المصدر : ج ٥ ص ٣٦٦ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٨ .

(٣) الذهبي : تذكرة ج ١ ص ٤٥ .

البكالى يتنقل بين البصرة والكوفة ومصر ويعود إلى الشام ، وهو في كل هذا يقص في المساجد وينشر الإسرائيليات . وتضيق أم الدرداء وهي تجد أمر هذا القصص الغريب يعظم ويكبر ، وكانت المرأة قد حملت بعد وفاة زوجها . قيادة حركة العبادة في الشام ، أرسلت إلى نوف البكالى ورجل آخر معه يقصان في المسجد تقول : اتقيا الله ، ولتكن موعظتكما لأنفسكما .

ويذهب نوف البكالى إلى الكوفة متلمذاً على علي بن أبي طالب ، ويذكر نوف أنه رأى علياً خرج ، فنظر إلى النجوم ، ثم نادى نوقاً فقال . يا نوف أراقد أنت أم رامتق . قال : بل رامتق - يا أمير المؤمنين . فقال علي . يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا ، والراغبين في الآخرة . أولئك قوم اتخذوا الدنيا بساطاً . وثرابها فراش ، وماءها طيباً ، والقرآن والدعاء دثاراً وشعاراً فرضوا الدنيا منها على منسج عليه السلام . يا نوف . إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن مر بنى إسرائيل أن لا يدخلوا بيتاً من بيوتى إلا بقلوب طاهرة . وأبصار خاشعة وأيد نقية . فإني لا أستجيب لأحد منهم ، ولأحد من خلقى عنده مظلمة . يا نوف : لا تكونن شاعراً . ولا عريقاً . ولا شرطياً ولا جابياً ولا عشاراً . فإن داود عليه السلام قام في ساعة من الليل فقال : إنها : ساعة لا يدعو عبد إلا استجيب له فيها - ألا يكون عريقاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً أو صاحب عرطبة - وهي الطنبور . أو صاحب كوبة - وهي الطبل<sup>(١)</sup> ومع أنى أشك في صحة نسبة النص إلى علي بن أبي طالب . غير أنه من الظاهر أنه محاولة لربط أوائل الحياة الروحية - حتى في الشام - بعلي بن أبي طالب . وهي محاولة حقيقية ، فقد كان علي بن أبي طالب - كما قلنا من قبل - المثال الأكبر لرواد الروح في الإسلام .

وكبرت مدرسة كعب الأخبار عند الكثيرين - كما قلت - حيلان بن فروة وشهر بن حوشب ومغيث بن سمي وغيرهم ولكن هل لم يكن ثمة زهد إسلامي خالص .

## ٩- عمرو بن الأسود السكوني

إن الجوعية<sup>(٢)</sup> في الشام وجدت مستجيبين لها في مجموعة من خلص التابعين من أمثال عمرو بن الأسود السكوني وقد قال عمر بن الخطاب فيه « من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى هدى عمرو بن الأسود » وقد تجافى عمرو بن الأسود عن الشهرة . كما تجافى عن الشيع يقول « لا ألبس مشهوراً أبداً . ولا أملاً جوفى من الطعام بالنهار أبداً حتى يوم القيامة » ويذكر أنه كان

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٤٨ - ٥٤ .

(٢) ابن الحوزي : صفة ج ٤ ص ١٧٢ - ١٨١ ،

يدع كثيراً من الشيع مخافة الأشر. وكان إذا خرج من بيته إلى المسجد قبض يمينه على شماله مخافة الخيلاء». وكان من هؤلاء التابعين الخالص العبادة، يزيد بن الأسود. وقد استشفق به معاوية. حين أقحطت دمشق... صعد معاوية المنبر وقال «اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بجزيرنا وأفضلنا. اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود». فأمطرت السماء. وكذلك كان من هؤلاء العباد أبو عبد الله الصنابحي. وشرحبيل بن السمط بن الأسود الكندي. وقد لجأ شرحبيل إلى العزلة. وقد ذهب إليه أبو الدرداء وسأله «ما يحمله على اعتزال الناس» فقال: «إني أخشى أن أسلب ديني وأنا لا أشعر». وكذلك يزيد بن مرثد - أبو عثمان النهدي «وقد استن أيضاً سنة البكاء. كما أنه رفض القضاء. مدعباً الجنون والتحمق. وسأخذ الصوفية هذا فيما بعد. ومن هؤلاء أيضاً «عبد الله بن محيريز. وقد رفض هدايا عبد الله بن مروان وعبد الملك في جبروته وسطوته»<sup>(١)</sup>

كما كان عبد الله بن محيريز يهاجم الحجاج. فهدده الخليفة بأنه سيرسله إليه قائلاً: والله لتنين عنه أولأبعثن بك إليه، وقد ورد عن عبد الله بن محيريز لمحة صوفية جميلة وهي قوله «كلكم يلقي الله تعالى. ولعله قد كذبه»<sup>(٢)</sup>.

#### ١٠ - أبو مسلم الخولاني ومدرسته:

ولكن كانت في الشام صورة من صور العبادة تمثل في أبي مسلم الخولاني. وقد كان أحد الثمانية من التابعين الذي انتهى الزهد إليهم، فيما يقول مؤرخو الرجال<sup>(٣)</sup> وقد أتى أيضاً من اليمن. وهو يشبه في هذا كعب الأحبار. وانتقل إلى الشام كما انتقل كعب وتذكر بعض الروايات أنه أسلم في عهد الرسول ولكن لم تصح له الصحبة. فقد وصل إلى المدينة بعد أن قبض الرسول: وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى أن إسلامه تأخر إلى عهد معاوية... وهو في هذا يشبه كعباً، بل أعجب به كعب - وأطلق عليه «حكيم هذه الأمة»<sup>(٤)</sup> فلا شك أنه كان بين الرجلين صلوات: فهل أخذ أبو مسلم عنه أيضاً. إن الأمر يحتاج إلى تحقيق أشمل.

ولقد كان أبو مسلم الخولاني على رأس القراء - وحاول أن يتوسط في الفتنة بين علي ومعاوية. ولكنه ما يلبث أن يأخذ جانب معاوية. ويقف معه. بل يحض على الضرب والطمعان<sup>(٥)</sup> وقد كان

(١) أبو نعيم: الخلية ج ٥ ص ١٤٢، ابن الجوزي صفة ج ٤ ص ١٧٢ - ١٨١.

(٢) أبو طالب: قوت ج ٤ ص ١٨١ وأبو نعيم: الخلية ج ٥ ص ١٤٠.

(٣) أبو نعيم: الخلية ج ٥ ص ٨٧، ١٢٣.

(٤) أبو نعيم: الخلية ج ٢ ص ١٢٤.

(٥) ابن مزاحم المنقري: وقعة صفين ص ٨٥، ٨٦.

كعب الأبحار بعد هذه الفتنة في الشام ويتكلم عنها . ويتنبأ بها .  
وأياً ما كان الأمر ، إذا انتقلنا إلى الجانب الزهدي في حياة أبي مسلم فإننا نرى أنه تابع تقاليد  
مدرسة كعب الأبحار في الزهد متابعة تكاد تكون تامة .

وقد نسب إليه مؤرخو الطبقات موقفاً إبراهيمياً . إذ ألقى به الأسود العنسي متنبئ اليمن في النارحين  
رفض أبو مسلم أن يشهد بأنه رسول الله . فلم تضره النيران . . . . . وبهذا حقق - وكما سيقول ذلك فيما  
بعد عمر بن الخطاب مقام إبراهيم<sup>(١)</sup> وانتقل أبو مسلم إلى المدينة . وكان الرسول قد قبض . فلزم  
الصحابة ، ثم انتقل إلى الشام مجاهداً ، وذهب مرات عديدة في غزو الروم . وقد أخذ أبو مسلم أول الأمر  
الحديث عن معاذ بن جبل . ثم اتصل بكعب الأبحار : وأخذ عنه الكثير من الإسرائيليات : وكان  
كعب يحاول علاج شهوة الشهرة فيه بأقوال من التوراة ثم أصبح أثيراً لدى معاوية ووقف ينادى ، معاوية  
في المسجد ومعاوية في أوج مجده الدنيوي ، بلقب الأجير . ونهاه عن ظلم الناس . . . . . وكان  
يطوف « بنى الإسلام » فلما دعاه معاوية قال له « أنت أحدوثة قبر عن قليل . . . » وينادى مرة أخرى  
- معاوية عن المنبر « إنما أنت قبر من القبور<sup>(٢)</sup> وكان معاوية يعرف معاونته له في حرب علي . فكان  
يقابل عظاته بالحلم والصبر .

عاش أبو مسلم الخولاني حياة زاهدة فعلاً . وكان يتزعم فريق القراء . وكان الجميع يجلونه  
ويكرمونه . وكما يذكر هو نفسه . ولكن كعب الأبحار يصرخ فيه « إن التوراة تقول إن أعدى الناس  
بالرجل الصالح قومه بخاصمه الأقرب فالأقرب » ويرد أبو مسلم « وصدقت التوراة » ومنذ ذلك الحين  
والرجل يمضى أشعث أغبر ، يرفع صوته بالتكبير حتى مع الصبيان ، وكان يقول « اذكروا الله حتى يرى  
الجاهل أنكم مجانين<sup>(٣)</sup> .

وأخذ في تعذيب نفسه وبدنه ، فكان يقول لأصحابه « أرايتم نفساً إن أنا أكرمتها ونعمتها  
وودعتها ، ذمتني غداً عند الله ، وإن أنا أسخطها وأنصبتها وأعملتها ، رضيت عنى غداً . . . قالوا :  
من تيكم يا أبا مسلم . قال : تيكم والله نفسي<sup>(٤)</sup> . . . . . أما تعذيب الجسد . . . فكان أن علق سوطاً  
في مسجده ، فإذا أحس بفتور في تعبه ، مشق مائه ، سوطاً أو سوطين . . . وكان يقول أنا أولى  
بالسوط من الدواب » وتلك طريقة في تعذيب النفس لم يعرفها عباد المسلمين ، فهل أخذها من الرهبنة

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢٨ - ١٢٩ ، وابن الجوزي صفة ج ٤ ص ١٨٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٢ - ١٢٨ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٦ .

المسيحية ، وبخاصة أن بعض أنظمة من هذه الرهبة كانت تتخذ التعذيب الجسدى للجسد أداة لها . . . إن بعض الرهبان في ضواحي حمص ، كانوا يعرفونه وكانوا يذكرون . . . « إنه رفيق عيسى ابن مريم في الجنة » ولاشك أن أبا مسلم في غزواته إلى بلاد الروم ، عرف الكثير من هؤلاء الرهبان . ولم تعد للدنيا عنده ذرة من غاية أو همة . . . فكان لا يجالس أحداً في المسجد . . . ولا يستمع لخواصهم في الدنيا . . . « إني أبصرت الغاية ، وإن لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت ، فسابق ومسبوق » وعجب من الناس ، وأخذ يردد قول كعب الأخبار « كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فإنهم اليوم شوك لا ورق فيه » . . . ووقف على خربة فقال « يا خربة أين أهلك ، ذهبوا وبقيت أعمالهم ، وانقطعت الشهوات ، وبقيت الخطية . ابن آدم : ترك الخطية أهون من طلب التوبة » ولكنه ما لبث أن زهد حتى في الأعمال<sup>(١)</sup> .

وأخيراً . . . أخذ أبو مسلم يتكلم في المحبة ويورد عن معاذ بن جبل حديث رسول الله في الحب « المتحابون في جلالى لهم مناير من نور ، يغطهم النيون والشهداء » ثم عن عبادة بن الصامت الحديث الآخر « حقت محبتي للمتحابين في ، وحقت محبتي للمتراورين في ، وحقت محبتي للمتتاصحين في<sup>(٢)</sup> » وتوفى أبو مسلم الخولاني في خلافة معاوية في بعض الأقوال ، وفي خلافة ابنه يزيد في بعض الأقوال الأخرى : وقد أصبحت حياته الروحية اللهم إلا في جانبها الأموى ، مثلاً لحياة العباد في الشام ، فكان الكثير منهم يتبعون خطاه ، فكانوا يأخذون أنفسهم بالجوع ، وينفذون طريق الجوعية تنفيذاً كاملاً ، ونرى المؤرخين يحاولون صوغ حياة هؤلاء مشابهة لحياة العباد في العراق ، فرجاء بن حيوة أبو المقدم الكندى بضاهاى ابن سيرين في العراق<sup>(٣)</sup> وبلال بن سعد بالشام ومصر بضاهاى الحسن البصرى<sup>(٤)</sup> . وهكذا كان رجاء بن حيوة يصحب الخلفاء والأمراء ليأمرهم بالمعروف . . . وكانت تلك سنة أبى مسلم الخولاني . . . وكان عبد الله بن زكريا الخزاعى الدمشقى . . . يتابع سنة أبى مسلم الخولاني أيضاً في الصمت عما لا يعنى عشرين سنة قبل أن أقدر منه على ما أريد « وكان يردد قولاً ذكره من قبل عباد البصرة » والله : للبس المسوح وسف الرماد ونوم على المزابل مع الكلاب ليسير في مرافقة الأبرار<sup>(٥)</sup> . وسادهم جميعاً فكرة الحزن . ويعبر عنها بلال بن سعد بقوله<sup>(٦)</sup> « واحزنه على أنى

(١) أبو نعيم : ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٦ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ١٣١ .

(٣) ابن الجوزى صفة ج ٤ ص ١٨٦ - ١٩٠ .

(٤) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٨٦ - ١٩٠ .

(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ١٥٠ .

لا أحزن . . . ولكن ما يلبث أن يعطى ابن سعد لخلق الإنسان - الأمل الوردى الجميل التفاؤلى فيدعو أهل الدنيا - أهل الخلود ، والبقاء ، إنهم ينتقلون من دار إلى دار « يا أهل الخلود ، يا أهل البقاء إنكم لم تخلقوا للفناء ، وإنما خلقتم للخلود والأبد ، ولكنكم منقولون من دار إلى دار »<sup>(١)</sup> وأخذ يردد هذه المعاني في لمحاته الجميلة « عباد الله إنكم تعملون في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال لدار مقام ، وفي دار نصب وحزن ، لدار نعم وخلد ومن لم يعمل على اليقين ، فلا يتغنى ، عباد الرحمن - هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم يقبل منكم ، أو شيئاً من أعمالكم غفر لكم » لذلك دعا إلى اجتناب الخطيئة مهما صغرت « لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر من عصيت . . . وتأمل الجيل الأول ، وقد أخذ عنهم الكثير فقال « أدركتمهم يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فإذا كان الليل كانوا رهباناً » وهنا يضع بلال بن سعد الفارق الكبير بين رهبانية النصارى وعباد المسلمين . إن عباد المسلمين يقضون النهار في أغراض الحياة ، وفي تقلباتها ، فإذا ما أقبل الليل انقلبوا رهباناً<sup>(٢)</sup> . وقد وصف ضمرة بن حبيب العابد الشامي بأنه كان إذا قام إلى الصلاة قلت « هذا أزهد الناس في الدنيا ، فإذا عمل للدنيا قلت : هذا أرغب الناس في الدنيا »<sup>(٣)</sup> ويستندون في هذا على حديث للنبي صلى الله عليه وسلم : « إن من خيار أمتي - فيما أنبأني الملائكة الأعلى قوم يضحكون جهراً من سعة رحمة ربهم ، ويبكون سراً من خوف عذابه ، مؤمنهم على الناس حقيقة ، وعلى أنفسهم ثقيلة ، يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان ، أجسامهم في الأرض وأقنادلهم على العرش »<sup>(٤)</sup> .

وكما انتشر البكاء في البصرة ، انتشر في الشام لدى عباها ، فزى أبا بكر بن عبد الله بن أبي مریم الغساني هو وكثيرون من العباد يكثرون البكاء ويذكر أنه لأبي بكر الغساني هذا مسلماً من الدموع في خديه<sup>(٥)</sup> . كما كان إسماعيل بن المهاجر : يكثر من البكاء ، وينسب إلى النبي داود حين عوتب في كثرة البكاء قوله : « ذروني أبكي قبل يوم البكاء ، قبل تحريق العظام واشتعال اللحي . . . »<sup>(٦)</sup> وكان أمية الشام يبكي ويتحجب حتى يعلو صوته وحتى تسيل دموعه على الخصى . وأرسل إليه الأمير يخبره إنك لتفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك ، وارتفاع صوتك ، فلو أمسكت قليلاً . فبكي

(١) ابن الجوزي : ج ٤ ص ١٩٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٢٢٤ ، ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٩٠ - ١٩٥ .

(٣) الحلية ج ٦ ص ١٠٣ .

(٤) أبو طالب : قوت القلوب ج ١ ص ٥٢٣ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٨٩ .

(٦) نفس المصدر : ج ٦ ص ٨٥ .

الرجل وقال : إن حزن يوم القيامة ورثني دموعاً غزيراً فأنا أستريح إلى درتها أحياناً (١) . وكان العباد يأتون من البصرة . . . كما كانوا يأتون من الكوفة ، ويستقرون في الشام .

أتى من البصرة حسان بن عطية ، واستقر في الشام . . . وقد أثر حسان بن عطية في الإمام الأوزاعي : وقد اشترك الاثنان في مجادلة غيلان الدمشقي في عقيدته القدرية . وكان العباد يؤمنون جميعاً بعقيدة الجبر المطلق . وقد سار حسان بن عطية على سيرة العباد جميعاً من قيام وصلاة . وقد ذكر أيضاً أنه كان على صلة بالرهبان ، يقابلهم ويؤمن على دعائهم . فلما عوتب قال : أرجو أن يستجيب الله له في ، ولا يستجيب له في نفسه (٢) . « . ومهما كان الأمر ، فإن عباد الشام اتصلوا بالرهبان ، وسيكون عن هذا الاتصال أثر عميق في التصوف وفي الكلام ، سواء بالأخذ أو بالنقد . وأتى من الكوفة القاسم بن مخيمرة ، وقد أثر أيضاً في الأوزاعي وروى الأوزاعي عنه . وقد كان القاسم من أشد عباد المسلمين ورعاً ، ومحافظة على سنن الإسلام ، وتميز عن عباد الشام جميعاً بهذا . وقد أعلن بدون مواربة : « كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام عروة عروة » ثم لزم الخليفة الأموي العابد عمر بن عبد العزيز . وكان القاسم أيضاً ينادى بالجوع ، كما كان يفعل عباد الشام (٣) . وأتى أيضاً من الكوفة عن عبادها عبدة بن أبي أمامة والحسن بن الحر .

وأخيراً . . . تظهر صورة أخرى لأبي مسلم الخولاني ممثلة في شخص نور بن يزيد . وقد أثر نور ابن يزيد في رباح القيسي العابد البصري المشهور كما ردد أحاديثه سهل بن عبد الله التستري . وكان نور يزيد حياته الروحية بالإسرائيليات . . . وكان يقول « كان من كلام المسيح عيسى عليه السلام : من علم وعمل وعلم ، كان يدعى عظيماً في ملكوت السماء » ثم يعلن فكرة الحب وأنه قرأ في التوراة « أن القلب المحب لله يجب النصب لله » ويذكر « علم اليقين » وهو المصطلح القرآني - فيفسره بما قرأه ببعض الكتب ، أي ببعض الإسرائيليات : « مكتوب في بعض الكتب : إن سرك أن تعلم علم اليقين فأجب في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا » ويدعو للجوع أيضاً من الكتب القديمة أي من الإسرائيليات « قرأت في بعض الكتب : قل للذين يتظامنون ويتجوعون للبر ، أولئك الذين يأوون في حظيرة القدس عندي » ويدعو للمناجاة من كلام عيسى بن مريم أيضاً فيقول « قرأت في التوراة أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحوارين : كلموا الله كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً : قالوا : وكيف نكلم الله : قال اخلوا بمناجاته ، اخلوا بدعائه (٤) .

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ١٩٦ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٧٣ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٧٩ ، ٩٣ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٩٣ - ١٠٠ .

## ١١ - المدرسة الجوعية والأسرة الأموية :

وأخيراً . . . إن المدرسة الجوعية - مدرسة العبادة ، مدرسة الروح الأولى في دمشق تكونت ، كما تكونت المدارس الروحية في البصرة والكوفة وغيرها من المدن الإسلامية ، وسارت في نفس المراحل التي سارت فيها مثيلاتها . كثرة الصلاة والقيام والحزن والبكاء . والعطش والجوع . . . ولم تظهر كلمة الزهد أو التصوف بوضوح . . . وإن كانت قد ظهرت الكلمة الأولى أحياناً على لسان العباد ، فلم تحمل أدنى معنى اصطلاحى . . . وظهر تعذيب الجسد ، ثم لمحات من الحب الإلهي وأما المصدر الخارجى . . . فكان إسرائيليّات ، انتشرت في كل مكان ، واستمعها العباد في كل مكان . ثم اتصالات بالرهبان ، لم يكن فيها نعمة التأثير ، بقدر ما فيها من محاولة لتدعيم الحياة الروحية القرآنية بدلائل وأخبار من كتب اليهود والمسيحيين . حقاً إن اتصال الشام بالمسيحية وباليهودية كان أكثر من اتصال العراق أو فارس . ولكن ؛ إن هذا الاتصال - كما رأينا - يشبه في ذلك أيضاً اتصال العراقيين بالمسيحية ، إنما كان اتصالاً في طريق الحياة الأخلاقية . وليس بين الدينين ثمة اختلاف في هذه الناحية الهامة . ولكن إذا تخطى الأمر هذه الناحية الأخلاقية ، ومس مسائل اللاهوت ، انقلب الوثام خصاماً - وتنازع الفريقان أشد النزاع .

ومن الخطأ القول : إن الأمويين ، وقد كانوا حكاماً دنيويين ، قد حاربوا الحياة الروحية الإسلامية ، أو عاونوها . لم يكن أبه هؤلاء الأمويون بأمر الدين أو بتمكنه من النفوس ، ولكنهم في الوقت نفسه راعوا مظاهره ، واحترموا - وبالأنحص في الشام ، عباد المسلمين . بل إن معاوية ، وقد كان رقيق الإيمان ، ضعيف التدين ، قد استخدم هؤلاء العباد في براعة نادرة . وكان لا بد له أن يفعل هذا - وقد كان قريب العهد من النبوة ، وكان ما زال بعد - في الحياة - عدد من الصحابة والتابعين في موطن حكمه . وكان من هوى الدولة - كما قلنا - أن تنتشر عقيدة الجبر ، وهى عقيدة العباد جميعاً في أمصار الإسلام ، لدى المسلمين . واستخدم عبد الله بن عمرو بن العاص وقد كان هو أيضاً من أعمدة الأمويين كأبيه ، أداة التعبد ، يجندع بها المسلمين . . . وكان يبحث عن علم النجوم ، وتلمذ على كعب الأخبار ويحاول أن يتعلم من هذا اليهودى الغريب أسرار ، ويرده الرجل . أراد هذا الغنى المترف أن يظهر للمسلمين بمظهر الغنوصى المليء بالأسرار . . .

وأنى يزيد . . . وكان عهده ، عهداً جاهلياً ، قتل فيه العترة الطيبة من آل البيت ، واشتعلت الحياة الروحية في الإسلام اشتعالاً ، وساد المسلمين جميعاً الآلام النفسية المبرحة . . . وانعكست الآلام على بيت الطاغية نفسه ، فأسلم الروح وتولى ابنه خلافة المسلمين ، حتى اعتلى المنبر يقول

«أنفوز بنو أمية بجلاوتها وأبوء أنا بوزرها ومنعها أهلها. كلا إلى ليرى منها» ، واعتكف حتى مات .  
 وأما أخوه خالد بن يزيد ، فقد انتهى به القلق وفقدان الملك - إلى الكيمياء كما سئى فيها بعد .  
 وسيرى البعض فيه « أبا هاشم الكوفي الصوفى » أول من تلقب بالصوفى . ولست أذهب إلى هذا  
 الرأى ، ولكن مما لا شك فيه أن خالد بن يزيد بن معاوية عاش فى قلق نفسى بالغ ، وسواء كان  
 اشتغاله بالصنعة عن رغبة دنيوية أو رغبة أخروية ، فقد وضع لطائفة من الزهاد بعد ذلك سنة  
 الاشتغال بالكيمياء ، ومحاولة تغيير المعادن ، ونشأ عنها كيمياء الصوفية ، كيمياء الروح ، وتغيير المعدن  
 الإنسانى الكثيف - البدن - إلى معدن روحى لطيف الروح .

وأما الابن الثالث عبد الله بن يزيد . . . فيلجأ إلى يهودى يتعلم منه السحر والنجوم . . . كما  
 سنين هذا فيما بعد .

وأما الابن الرابع ليزيد وهو عبد الرحمن بن يزيد ، فقد خضع لعبد الملك بن مروان طاغية بنى  
 مروان . . . وأصبح خلاله ، فلما مات عبد الملك . وتفرق الناس عن قبره ، وقف عليه وحيداً : فقال :  
 أنت عبد الملك الذى كنت تعدنى فأرجوك ، وتوعدنى فأخافك . أصبحت وليس معك من ملكك  
 غير ثوبيك ليس لك منه غير أربعة أذرع فى عرض ذراعين « ثم انكفأ إلى أهله ، وانقطع للعبادة » حتى  
 صار كأنه شن بال « (١) .

ومن صلب بنى مروان ظهر عمر بن عبد العزيز ، وقد سئل الإمام محمد الباقر عنه فقال : أما  
 علمت أن لكل قوم نجية ، وأن نجيب بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة وحده (٢)  
 ولستأ نتكلم هنا عن عدله ، وقد استفاضت الكتابات عنه : وكثرت الأسطورة . . . كانت  
 الذئاب ترحم من الشياه - وكان وكان . . . بل إن خالد بن يزيد بن معاوية : صاحب الكيمياء  
 والنجوم يتنبأ بعدله قبل ولايته ، وإنه إمام هدى « (٣) وكذلك ابن سيرين . ويقول الحسن البصرى  
 « إن كان مهدي ، فعمر بن عبد العزيز ، وإلا فلا مهدي إلا عيسى بن مريم » (٤) .

ويقول مالك بن دينار « يقولون مالك بن دينار زاهد . إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتمته الدنيا ،  
 فتركها » وكان عمر بن عبد العزيز يلبس القميص المرقع ، كما كان من البكائين . وكان يبكى ،  
 فتبكي امرأته وأولاده ، ويشهق ويغشى عليه ، حين يذكر الموت (٥) . « وكان له بيت فى جوف بيت  
 يصلى فيه لا يدخل فيه أحد ، فإذا كان فى آخر الليل ، وضع الغل فى عنقه ، فلا زال يناجى ربه

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٨٧ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٢٥٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٥ ص ٦٢٨ - ٦٢٩ .

وبيكى . وكان عمر - كعباد البصرة والكوفة - يذهب إلى القبور يناجيا وتناجيه : يقول « ناداني القبر من خلفي - يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني : ما صنعت بالأحبة . قلت : بلى . قال : خرقت الأكتفان ، ومزقت الأبدان ، ومصصت الدم وأكلت اللحم ، ثم يمضى عمر في وصف الجثث البالية - ثم بكى وقال : ألا إن الدنيا بقاؤها قليل ، وعزيزها ذليل ، وغنيها فقير . . . وكثرت مواعظه القبرية . بل كان الموت موعظته الكبرى - وحين أرسل إلى صديق له يعزبه قال : فإذا قوم من أهل الآخرة ، أسكننا الدنيا ، أموات أبناء أموات ، والعجب لميت يكتب إلى ميت ، يعزبه عن ميت <sup>(١)</sup> وكان عمر بن عبد العزيز طرازاً فريداً - في الشام - من الزاهدين الوعاظ ولكن هل ترك الرجل لمحات تدخل في باب التصوف . . .

إن رجلاً يسأل : يا أمير المؤمنين : كيف أصبحت فيقول . أصبحت بطيئاً بطيئاً ، متلوثاً في الخطايا ، أتمنى على الله الأمانى « ثم يتكلم على دواء القلوب « لا ينفع القلب إلا ما خرج من القلب » وستكون القلوب وحركات القلوب شغل الصوفية ، فيما بعد . ثم يتكلم عن الاستتار - إخفاء ما في النفس ، وإخفاء الذنوب والخطايا . . . « يا معشر المستترين : اعلموا أن عند الله مسألة فاضحة . قال تعالى « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون <sup>(٢)</sup> ومات ابنه عبد الله وكان أيضاً كأي من عباد المسلمين ، فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار ينهى أن يناح عليه - وقال في خطابه « إن الله أحب قبضه وأعوذ بالله أن أخالف محبته <sup>(٣)</sup>»

ودعا إلى ذكر الله باللسان ، ولكنه يقول « الفكرة في نعم الله أفضل العبادة <sup>(٤)</sup> » وأخيراً وضع نفسه في قدر الله ، في استسلام مطلق لإرادته « أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القدر <sup>(٥)</sup> . ومات عمر بن عبد العزيز وهو يردد « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

ولعل أحداً من عباد المسلمين الذين شاركوا في إقامة الحياة الروحية في الإسلام ، لم يبلغ شأو عمر ابن عبد العزيز كان الرجل يمثل سمات العابد المسلم الحقيقي الصادر عن روح الإسلام وكان يمثل خصائص المسلم الحقيقي الذي جمع في أعطائه العقيدة الإسلامية الحقيقية . وقد وضع للمسلمين أجمل توضيح طريقة جمهور الإسلام في تولى الصحابة . إنه يتولى الشيخين هؤلاء الذين أقاموا ركائز

(١) أبو نعيم : حلية ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٣) نفس المصدر : ج ٥ ص ٣٠٦ .

(٤) نفس المصدر ح ٥ ص ٣١٤ .

(٥) أبو طالب المكي : ياقوت ج ١ ص ٣٠٤ .

العدل في هذه الدنيا « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ، فترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل ، فلم يستنقص منه شيئاً ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر ، فكبرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس يكرون منه السواقي ، حتى تركوه يابساً ، ليس فيه قطرة . لئن أبقاني الله ، لأسكرن تلك السواقي ، حتى أعيده إلى مجراه الأول<sup>(١)</sup> » وكان يحاول جهده أن ينبع سيرة الشيخين . . . ونحن نعلم أنه منع سب علي . بل يعلن أمام الناس « أنا والله مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه » وكان على مثاله في حياة الروح كما كان عمر مثاله في العدل المطلق .

لا جرم بعد ذلك أن قام بنو مروان بسمه . وقد أخبر بهذا - فلم يهتم ، بل مضى راضياً إلى مصر . . . ومن العجب أن ينسج المستشرقون قصة خيالية عن إمارة إبراهيم بن أدهم ، وتخليه عن الإمارة ليعيش زاهداً صوفياً ، ويحاولون في تعسف مضحك ، أن يجعلوا منه بوذا الثاني « بينما لم يتوقفوا عند عمر بن عبد العزيز - أمير المؤمنين ، الذي زهد في الدنيا وفي الخلافة ، وهو صاحب هذه وصاحب تلك . إنه كان أمير المؤمنين الأخرى ، ولكن في صورة محمد الثاني » .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٥ ص ٢٧٤ .

(٢) نفس المصدر: ج ١ ص ٣٦٤ .

## الفصل الثاني

### تطور الفكرة الجوعية في الشام

مدرسة أبي سليمان الداراني

كان لا بد - وتلك سنة الحياة - أن تتطور الحياة الروحية في الشام - من فكرة العبادة الأولى - وأساسها الجوع ، إلى أساس روجي أعمق وأكثر نفاذاً في زوايا النفس الإنسانية ، وأن تظهر الحياة الروحية باسم الزهد ، وتقرب من التصوف ، أو بمعنى أدق من علم في إرادة النفس وأخلاقها . وأن تتجمع تلك اللمحات الجديدة التي صدرت عن الجوعية ، عن عباد الشام في نسق يشبه النظرية أو النظريات ، وأن يبدأ معالم العلم الجديد « التصوف » في الظهور ويمكننا أن نقول : إن الزهد في صورته الفنية - أو كمصطلح يجمع عباد المساميين بدأ يتضح في نهاية القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . وكما كان رجال القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني عباداً ألقوا ببعض الخطرات في الزهد ، وبالقليل في التصوف ، كان رجال النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث زهاداً ألقوا ببعض اللمحات في التصوف .

وهنا يترامى لنا تساؤلان ( ١ ) هل حدث هذا في مدرسة الشام فقط ، أم في غيرها من المدارس . ( ٢ ) هل ظهر مصطلح خاص برجال الزهد في هذا الوقت .  
أما عن التساؤل الأول : فقد حدث التطور في جميع مدارس العبادة في الإسلام بدأوا بالعبادة ، وكانوا قراء كما قلنا ، ثم اتجه بعض القراء إلى العزلة والانفراد ، وتميز القراء الخالص بالتحديث ، ولم يهتم العباد بالتحديث ، ثم ظهر الفقه في كل المدارس ، كعلم متوكل ومدرسة جامعة ، فاختلغ العباد ، مع الفقهاء ، وأخذوا يتميزون باسم « الزهاد » .

أما عن التساؤل الثاني : فإن الزهاد بلاشك في مدرسة الشام وفي غيرها من المدارس بدأوا يستخدمون لغة خاصة . ستتضح لنا خلال بحثنا لنماذج منهم في هذه المدرسة وغيرها من المدارس . وأخذوا يضيفون على ألفاظ قرآنية وحديثية معان خاصة بهم . . . وكان هذا إيذاناً بتكوين المصطلح الصوفي ، وألفاظه وحدوده . وسنعود إلى بحث هذه المسألة - على صورة أوسع - حين ننتهي من بحثنا للمدارس كلها ، ونضع أسس نظرية انبثقت عن زهاد العالم الإسلامي كله .

## ١- أبو سليمان الداراني وآراؤه :

ويتضح في مدرسة عبد الرحمن عطية المشهور بأبي سليمان الداراني ( المتوفى عام ٢٠٥ عند البعض ٢١٥ عند البعض الآخر ) الأمران معاً . فهو نهاية تطور في مدرسة الشام ، وبدء لمرحلة جديدة . وقد اشتهر بشاميته ، ونسب إلى داريا ، قرية قريبة من قرى دمشق . ولكنه كان عراق الأصل ، من وسط المدينة التي بناها الحجاج . وكانت له في العراق « أيام » كما كانت له في الشام « أيام » بل كانت أيام العراق أيام عمل ، طريق السلوك وآدابه وكانت أيام الشام أيام معرفة ، أيام الفتوحات الربانية التجليات الإلهية ، « كنت بالعراق أعمل وأنا بالشام أعرف » كانت آداب السلوك إذن في مطلع حياته في بلده الأصلي « واسط » ، وفي تنقلاته إلى الكوفة وسماعه الحديث ، وأخذه عن سفيان الثوري ، وفي أسفاره إلى البصرة وأخذه عن الزاهد صالح بن عبد الجليل ، كما أخذ أيضاً عن معروف الكرخي ، ولعله ذهب أيضاً إلى بغداد (١) . ثم كان النضج في الشام حين بدأت تفيض منه « الحكمة » وبالرغم من أنه - كما يقول ابن الجوزي - سمع الحديث الكثير ولقى سفيان الثوري وغيره ، ولكنه اشتغل بالتعبد عن الرواية (٢) « غير أن مؤرخي الصوفية يضعونه جميعاً في نسق أهل الصوفية من أهل السنة .

وكان النزاع قد بدأ يشتد بين العابدين ، بل بين الزهاد ، وكان الزهد قد تكون - في أواخر القرن الثاني - كطريق للحياة ، وبين الفقهاء . وكان الفقه بالمعنى الاصطلاحي قد بدأ يتكون أيضاً . ولذلك نرى أبا سليمان الداراني وقد شعر ، كما يشعر غيره من الزهاد بأنهم غرضاً لحملة عنيقة من هؤلاء الفقهاء ، تعلن أنهم يخالفون طريق الكتاب والسنة . لذلك نراه يقول « ربما يقع في قلبى النكتة من نكت القوم أياماً . فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة (٣) » أصبح الزهاد إذن طائفة ، وقد عبر عنهم أبو سليمان الداراني بالقوم ، وأصبح لهم « نكت » أى أساليب خاصة في المجاهدة والسلوك ، بل في طرائف وحكم يلقونها بين الناس ، أى أصبح الزهد نظاماً ، عملياً ونظرياً ، وكاد أن يقترب من التصوف .

وسنحاول أن نضع لمحات أبي سليمان الداراني ، وقد وصلتنا في شذرات متفرقة ، في صورة تركيبية بقدر ما تسعفنا المصادر .

(١) السلي : طبقات الصوفية ص ٨٩ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٠٦ ، والبنهاني : جامع كرامات الأولياء : ج ٢ ص ١٤٤ .

(٣) السلي : طبقات الصوفية ص ٨٩ .

## (١) الطريق الصوفي : أو الحياة التأملية :

قلنا إن أبا سليمان الداراني قد عانى آداب السلوك في العراق . وقد حمل معه إلى الشام ، أركان الحياة العملية : أي العمل الذي بعد العابد أو الزاهد لتلقى الأنوار الإلهية ، والفيض الرباني وهنا نتساءل هل ذكر مصطلح الطريق . إنه يقول : اختلفت إلى مجلس قاص ، فأثر كلامه في قلبي ، فلما فمت لم يبق في قلبي منه شيء ، فعدت ثانياً . فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي ، فكسرت آلات المخالقات ولزمت الطريق<sup>(١)</sup> « فأبوسليمان الداراني إذن قد عرف المصطلح . . . وبداية الطريق الصوفي عنده هو الليل . . .

وكان لليل في حياة الروح عند المسلمين أكبر مكان . والمصدر الأول لهذه الحياة هو القرآن « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً » ويخاطب القرآن الرسول فيقول « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثله وطاقفة من الذين معك » . . . . . ويذكر الله قيام الليل ، قنوته وقيامه : حيث يختلط الخذر والرجاء « آمن هو قات آناء الليل ، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه » . بل أهل الليل هم العلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . . . ثم يدعو الله إلى هذه العبادة الليلية « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً » . . . « تنجاف جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » . « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » ، « وهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

فأهل الليل إذن هم عباد المسلمين على الحقيقة ، يقرأون بالليل ، وقراءة الليل « أشد وطأً للقلب ، « وأقوم قبلاً » للحفاظ . . . . . وهم « أهل الخوف والرجاء . . . ثم غايتهم النهائية ، فيما يقول أبو طالب المكي ، وسنعود إلى نصوصه هو فيما بعد فلما أخفوا له الإخلاص بأعمال السرائر ، أخفى لهم من الجزاء نفيس الذخائر ، ولا نقر أعين هؤلاء المحيين إلا بوجهه ، كما يعملوا إلا لوجه الله تعالى<sup>(٢)</sup> » . واستفاضت الأحاديث أيضاً عن قيام الليل . ومن أهمها « عليكم بقيام الليل ؛ فإنه مرضاة لربكم ، ومكفر لسيئاتكم ، وهو دأب الصالحين قبلكم ، ومنهاة عن الإثم ، وملقاة للوزر ، ومذهبة لكيد الشيطان ، ومطردة للداء عن الجسد .

واستفاض عن العباد كأهل الروح قبل أبي سليمان الداراني التغني بالليل وتأمله . . . يقبل بظلامه عليهم فيتدرعوه ثم يمشون أن يسفر قبل أن يتلبسوه ويبكون عليه . . . . . ويتنظرون نفحات الله في إعطائه . . . . . ويطلبون من مريدتهم أن يقيموه حتى يتعرضوا لنفحاته ، فإنه يصيب القلوب المتيقظة

(١) التشمي : الرسالة ج ١ ص ٢٥٥ - ٢٥٦ . (٢) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ٥٧ .

ويخطئ القلوب النائمة . . . وكانوا يبكون حين وفاتهم ، حزناً على أن الموت سيسلبهم قيام الليل . . . وقد ذكرنا الكثير عن هذا من قبل في ثنايا هذا الكتاب وقد ذكر أبو طالب المكي مجموعة كبيرة من العباد من التابعين اشتهروا بإحياء الليل كله ، وكان هؤلاء منتشرون في جميع أنحاء العالم الإسلامي . وكان على رأس هؤلاء أبو سليمان الداراني (١) .

وكان أبو سليمان الداراني أول من استخدم مصطلح « أهل الليل » ، فكان يقول « أهل الليل في ليالهم ، ألد من أهل اللهوى في لهوهم ، ولولا الليل ، ما أحببت البقاء في الدنيا » . . . ويقول أيضاً « لو عوض الله عز وجل أهل الليل من ثواب أعمالهم ، ما يجدونه في قلوبهم من اللذة ، لكان ذلك أكبر من أعمالهم » ونرى هنا أنه وضع مصطلح أهل الليل مقابلاً لأهل اللهوى ، مع أن لهؤلاء الآخرين إنما كان بالليل أيضاً . ثم أخذ أبو سليمان الداراني يذكر لمريديه « أهل الليل على ثلاث طبقات : منهم إذا قرأ متفكراً بكي ، ومنهم إذا تفكر صاح ، وراحته في صياحه ، ومنهم من إذا قرأ وتفكر بهت ، ولم يصح » وطلب من أبي سليمان أن يفسر ، فقال : لا أقوى على التفسير . ولم يدرك سائله : أن الأمر أقوى من التفسير ، إنه يتكلم عن خطرات القلوب في كل المراحل . . . ثم عاد يقول « من أحسن في نهاره ، كوفئ في ليله ، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره ، وسن صدق في ترك شهوة ، ذهب الله بها من قلبه ، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له (٢) » . وأصبح مصطلح « أهل الليل » مستقراً لدى الصوفية ، ففي القرن الرابع الهجري وفي هدى تقسيم أبي سليمان الداراني ، يقسم الصوفية « أهل الليل » إلى ثلاثة أصناف :

١- جماعة يقطعهم الليل ، فكان هؤلاء المريدون الذين يقرأون الأوراد والأحزاب كابدوا الليل ، فغلبهم .

٢- جماعة قطعوا الليل ، وهؤلاء هم العالمون ، قطعوا الليل ، بالصبر والمصابرة ، فغلبوه .

٣- وجماعة « قطع الليل » بهم . . . أي يمر الليل بهم مر السحاب يمضي سراعاً ، وهم في اليقظة الكاملة ، لم يعودوا يعرفون النوم بعد « هؤلاء المحبون أهل الفكر والمحادثة ، وأهل الأنس والمجالسة . . . وأهل الذكر والمناجاة ، وأهل التلق والمناجاة » يتقص الليل عليهم كل حال يرد عليهم ، وعاشوا في النعيم ، وهم ينتظرون في الليل ولكن الليل يمضي سراعاً « و » رفع الحبيب عنهم نومهم « إنه هناك دائماً وهم إليه شاخصون ، في مناجاة دائمة . . . إن أنوار المعرفة خففت عليهم قيامهم . وقد فاض الوصال ، فأرادوا المزيد ، أو لم يعد مزيد (٣) .

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ٧٦ .

(٢) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ٨١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٢٠٤ .

## (ب) الجوع .

وأنى أبو سليمان الداراني من العراق . وقد عرفت مدارس العراق الجوع ، وعاناه بلاشك سليمان الداراني هناك ، ولكن للجوع أهمية كبرى في مدرسة الشام .

وقد وسم عباد الشام - كما رأينا بالجوعية - وقد كان عليه ، وقد أصبح شيخهم أن يبدل بدلوه . . . . . فقال « مفتاح الدنيا الشيع ، ومفتاح الآخرة الجوع وأصل كل خير في الدنيا والآخرة ، الخوف من الله ، وأن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة ، ولا يعطى إلا من أحب خاصة ، ولأن أدمع من عشائى لقمة ، أحب إلى من أن آكلها ، وأقوم من الليل إلى آخره<sup>(١)</sup> . . . . . بل إنه يدعو تلميذه الزاهد الكبير أحمد بن أبي الخوارى إلى أن « يدع الخبز أبداً ، وهو يشتهي ، « فهو أحرى أن تعود إليه » ثم يحاول أن يهون عليهم الجوع فيقول « جوع قليل وسهر قليل وبرد قليل ، يقطع عنك الدنيا<sup>(٢)</sup> . . . . . ويحس أن الجوع قاس على العابد الزاهد فيقول « ربما سمعت الرجل يقول : فؤادى يلسعنى من الجوع ، ولولا أنى أخاف أن أضعف عن أداء الفرائض ، ما أكلت شيئاً » ولكن الجديدي في دعوة أبي سليمان للجوع أنه يربطه بالقلب ، فالقلب إذا جاع وعطش ، صفا ورق ، وإذا شيع وروى ، عمى وبار . . . .<sup>(٣)</sup> .

## (ج) المعرفة :

وقد أراد أبو سليمان الداراني أن يجلى صداً القلب ، فربط الجوع به إذا جاع القلب والعطش ، صفا ورق . ويقول « استجلب الزهد بقصر الأمل ، وادفع أسباب الطمع بالإياس والقنوع . . . . . » وكل هذا لكى « يخلص إلى راحة القلب بصحة التفويض . . . . . بل إنه يرى أن طريق الصوفى الحقيقى هو أن يرد « سبيل العجب بمعرفة النفس ، ويخلص إلى إجماع القلب بقله الخطأ ، ويتعرض لرقه القلب بمجالسة أهل الخوف » ويستجلب نور القلب بدوام الحزن ، ويلتمس باب الحزن بدوام الفكرة ، ويلتمس وجوه الفكرة في الخلوات<sup>(٤)</sup> . . . . . ولن يصل الزاهد العابد إلى الأنوار المفاضة على القلب إلا إذا خلى قلبه من كل السوى ، فلا يشغله غير الله « اختلفوا علينا في الزهد في العراق فمنهم من قال :

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٩٧ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٤ % ٣٦٦ وابن الجوزى صفة ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٦٦ .

الزهد في ترك لقاء الناس أو منهم من قال في ترك الشيع . . . وأنا أذهب إلى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله<sup>(١)</sup> .

« وإذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحلت الآخرة منه » والحجاب لا يأتي إلا من قلب تعلق بالشهوات أي تعلق بغير الله . . . ولذلك كان يكثر من التكلم عن أهل البصائر . . .<sup>(٢)</sup> . ونور الله والقلب العامر » وأخيراً قال أبو سليمان الداراني « لوشك الناس كلهم في الحق ، ما شككت فيه وحدي » وكل قلب فيه شك ، فهو ساقط<sup>(٣)</sup> . . . وأخيراً . . . يرى تصفية القلب إلى أن يجلي العبد قلبه من الدنيا والآخرة . . . وقد سبقته رابعة العدوية إلى هذا من قبل كما رأينا ، ولعل لها بعض التأثير عليه ، وهو يقول « أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبك ، وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره<sup>(٤)</sup> .

فاذا خرجت الدنيا والآخرة من القلب وجد العابد الحكمة فيه<sup>(٥)</sup> . فما هي الحكمة التي أكثر أبو سليمان الداراني من ذكرها. وما طريقها : يقول « ربما أقفت في الآية الواحدة خمس ليال ، ولولاني بعد أدع الفكرة فيها ، ما جزتها أبداً ، وبما جاءت الآية من القرآن - تطير العقل ، فسبحان الذي رده إليهم بعد » ومن الواضح أن أبا سليمان الداراني يضع هنا طريق الاستنباط عند الصوفية وقد سمي أولاً طريق الفهم . وطريقة الاستنباط الصوفية هي تكرار الآية الواحدة تكراراً دائماً حتى يتقدح المعنى في قلب الصوفي . وهنا يتلقى النفسحات الإلهية ، أو النفسحات اللدنية ، ولقد عبر أبو سليمان عن هذا حين قال « كنت بالعراق أعمل ، وبالشام أعرف » فأنوار المعرفة وضحت له العراق . بل إنه يضع هذا في مقامين : مقام العاملين ومقام العارفين أما المقام الأول : فهو مقام من شغل بنفسه عن الاشتغال بالناس ، وأما المقام الثاني : فهو مقام من شغل بالله عن نفسه<sup>(٦)</sup> وفي هذا المقام يقول أبو سليمان الداراني « إذا لاحظت الأشياء كلها من فوق ، وجدت لها طعماً آخر<sup>(٧)</sup> . ويقول أبو سليمان الداراني « أهل المعرفة دعاؤهم غير دعاء الناس ، وهمتهم غير همة الناس ، وإرادتهم من الآخرة غير إرادة الناس . وقال رجل طوبى للزاهدين ، فقال أبو سليمان : طوبى للعارفين<sup>(٨)</sup> . والمعرفة معرفة مباشرة بناها العبد من الله وبالله<sup>(٩)</sup> .

(٦) أبو طالب المكي : توت القلوب ج ١ ص ٥٤٨ .

(٧) نفس المصدر : ج ٢ ص ٧١ .

(٨) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ - ٢٦٥ .

(٩) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٧٢ .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٠ / ٢٦٢ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٨ .

## (د) المقامات :

وإذا صحت المعرفة ، انتقل السالك في المقامات : وقد حددها بثلاث : الزهد والورع والرضا . وكان يقول إنها ثلاث مقامات لا حد لها « ويذكر صاحب القوت : إن ابنه سليمان - وكان عارفاً ، وكان كثير من الصوفية يقدمونه على أبيه كان يرى أن لهذه المقامات حدوداً . إن من تورع في كل شيء ، فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد في كل شيء ، فقد بلغ حد الزهد ، ومن رضى عن الله في كل شيء ، فقد بلغ حد الرضا<sup>(١)</sup> . ولكن ماليت أبو سليمان الداراني أن وضع لكل مقام من المقامات حداً . . . ولم تعد المقامات عنده ثلاث ، بل كثرت . ولم يكن المصطلح بعد استقرار ، لا مصطلح المقامات ، ولا عددها ، . . . فهو يستخدم أحياناً كلمة المقام وأحياناً يستخدم كلمة الدرج . أقول . . . ذهب إلى أن لكل مقام غاية أو حداً . . . « وإذا بلغ العبد غاية من الزهد ، أخرجه ذلك إلى التوكل » وها هو هنا يتوصل لمقام التوكل وإن كان يقول إنه عسير إليه ، فيخبر تلميذه أحمد بن أبي الحواري « ما من شيء من درج العابدين إلا ثبت ، إلا هذا التوكل المبارك ، فإني لأعرفه ، إلا كسام الريح ، ليس يثبت<sup>(٢)</sup> . فهل هو حقاً لم يعرفه ، أم أنه يعلم تلميذه أن التوكل ، أو مقام التوكل ، محفوف بالأشواك ودونه الصعاب . . . ويضيف مقاماً رابعاً هو القناعة فيقول « القناعة أو الرضا ، والورع أول الزهد »<sup>(٣)</sup> ثم يأتي بعد مقام الحب ، وكم تكلم فيه أبو سليمان كثيراً .

وسلتي نظرة عامة على هذه المقامات . . . مع تقريرنا للمرة الثانية أن أبا سليمان الداراني لم يقم بصياغتها صياغة منهجية ، كما نرى هذا فيما بعد لدى الصوفية في أواخر القرن الثالث وخلال القرن الرابع . . . كما لا نرى لديه أيضاً تمييزاً من المقامات والأحوال . . . حقاً إنه يتكلم عن أنوار القلب والأنوار التي ترد إليه . . . ولكنه لم يوضح المسائل ولم يميز مختلف المعاني الصوفية .

أما مقام الزهد - فكان أهم المقامات عنده ، وقد شغل به أثناء مجاهدته بالعراق . ثم بالشام ، وأول الزهد « الورع »<sup>(٤)</sup> وسيصبح الورع مقاماً آخر لدى الصوفية . ويستجلب الزهد « بقصر الأمل » وأن يدفع أسباب الحياة باليأس والتنوع<sup>(٥)</sup> . وليس الزهد عنده بقطع الأسباب وانتظار ما يسميه « قرع الباب » يدخل الناس عليه بطعامه وثيابه . . . « لا خير في عبد لزم القعود في البيت ، وقلبه

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ٢ ص ٨٧ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٧٤ .

(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٦ .

معلق بقرع الباب متى يطرق بسبب « وقد اختلف الصوفية من بعده في ترك الأسباب ، وربطوا ترك الأسباب لا بالزهد فقط بل « بمقام التوكل » . . . و يرون أن من صح له مقام في التوكل استوى عنده وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكناً مطمئناً عند العدم ، لم يشغله ذلك عن الله تعالى ، ولم يتفرق همه ، فترك التكسب والقعود لهذا أفضل ، لشغله بحاله . ولكن أبو سليمان الداراني يقرر أنه في كل المقامات لى قدم إلا هذا التوكل المبارك ، فما لى منه إلا مسام الرياح <sup>(١)</sup> . . . ويقرر أنه لو توكل الزهاد ما بنوا الحائط ولا جعلوا لباب الدار قفلاً <sup>(٢)</sup> . إذن فالأفضل لديه أن يقف عند مقام الزهد ، حيث لا يندم الزاهد الدنيا ولا بعدها ولا ينظر إليها ولا يمدحها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت <sup>(٣)</sup> .

وانتقل إلى عرض مقام الرضا عنده . وقد اثن فيه أبو سليمان الداراني ، والرضا رضا ان-رضاء الله على السالك ، ورضا السالك على الله . . . وأهم أركان الرضا الإيمان بالجبر المطلق « ولذلك كثيراً ما هاجم أبو سليمان الداراني القدرية . . . نحن في جبر الله ، ولا عمل من أعمالنا يرضى الله أو يسخطه ، « ليس أعمال الخلق بالذى يسخطه ولا بالذى يرضيه ، وإنما رضى عن قوم ، فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل السخط <sup>(٤)</sup> » إنه إذن نوع من الاصطفاء ، ولا خيرة ، ونحن في جبره المطلق فلا إرادة مخلوق ، ولا جزاء على عمل « قد أسكنهم الغرف قبل أن يطيعوه وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، وقد كان عمر بن الخطاب يحمل الطعام إلى الأصنام ، والله تعالى يحب ، ماضره ذلك عند الله طرفة عين <sup>(٥)</sup> عجباً ، وهل تين لأبى سليمان الداراني ما يؤدي إليه سياق كلامه . . . كيف يصل من يصل وكيف يعود ، من يعود ، وهو الذى يقول « إذا وصلوا إليه لم يرحلوا إليه أبداً . . . إنما يرجع من رجح من الطريق <sup>(٦)</sup> » لا . . . إنه يتردد ثم يجزم بأن العمل لا يوصل أبداً إلى رضا الله « كيف يعجب عاقل بعمله . . . وإنما يعد العمل نعمة من الله ، إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع ، وإنما يعجب بعمله القدرية الذين يزعمون أنهم يعملون فأما من زعم أنه مستعمل فبأى شيء يعجب <sup>(٧)</sup> . . . إذن في هذا المقام مقام الرضا . . . يتعدم العمل ، إنما هو قدر

(١) أبو طالب : قوت القلب ج ٢ ص ٣١ والسراج : اللع ص ٧٩ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٦ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٧٤ .

(٤) السراج : اللع ص ٨١ .

(٥) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٦) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٦١ .

(٧) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٦٣ .

أزلى سابق من الله باختياره هو « لأهل الرضا » واصطفائه لهم ، رضى عنهم ، فاصطفاهم ، عباد أصنام وأوثان أو نصارى أو يهود . . . وقد عبر صاحب اللمع عن موقف أبى سليمان هذا بقوله « ومنهم - من جاوز هذا وذهب عن رؤية مرضاة الله عنه ، ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى خلقه من الرضا (١) » .

ولكن الرضا لا يتم برضاء الله فقط عن العبد بل لابد من رضاء العبد عن الله « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وقد عبر الصوفية عن الرضا بأنه هو كون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله (٢) . أما أبو سليمان الداراني فقد عبر عنه بأنه الرضاء بالله بدلاً دون خلقه وإيثاره على الشهوات كلها (٣) . بل إنه يعرفه بوضوح بأنه السلو عن الشهوات (٤) . وكان أبو سليمان الداراني - هذا الشيخ ذو البهاء الروحي الكبير - ساكن القلب تحت حكم الله ، وبلغ رضاه غايته ، وهو يقول لتلميذه أحمد بن أبى الحوارى « أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقاً . لو أدخلنى النار ، لكنت بذلك راضياً (٥) » . بل إن الرضا « أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعذ به من النار (٦) » .

وفي هذا المقام أطلق « لو اجتمع الناس على أن يضعونى ، كاتضاعى عند نفسى ، لما قدروا عليه . لقد رضى بالله ، فلم يعد ير ل نفسه شيئاً ، ومن رأى لنفسه قيمة ، لم يذق حلاوة الخدمة ، ولا طعم الرضا (٧) » . « وعلموا النفس الرضا بمجارى المقدر . فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة (٨) » . بلغ إذن أبو سليمان الداراني غاية الرضا ، حيث لا يطلب جنة ولا ناراً ، ساكناً عتيداً ، يتطلب « الوجه الإلهى ، غارقاً فى الحب .

#### (هـ) مقام الحب :

وكانت نغمت الحب تتردد فى أرجاء العالم الإسلامى ، فى مختلف مدارسه . وقد رأينا كيف تغنى بها أصحاب « الحلقة » فى مدرسة البصرة ، ونطق بها عباد الكوفة ، ثم نراها فى مدرسة الموصل . . .

(١) السراج : اللمع . ص ٨١ .

(٢) نفس المصدر : ص ٨ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٤) السنى : طبقات ص ٧٩ .

(٥) أبو نعيم : الحلقة ج ٩ ص ٢٦٣ ، ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٠١ ، واقشيري : الرسالة ٤٢٦ .

(٦) القشيري : الرسالة ص ٤٢٥ .

(٧) نفس المصدر : ص ٣٤٠ .

(٨) السنى : طبقات . ص ٨١ .

ولكنها تأخذ أركانها الكبرى في مدرسة الشام ، وعلى يد أبي سليمان الداراني ، كما نجدتها في صورة مجلوة لدى تلميذته رابعة بنت إسماعيل وزوجها أحمد بن أبي الخواري .

كان لابد أن يسلم « مقام الرضا » أبا سليمان الداراني إلى مقام الحب . ومقام الحب نهاية العارفين والعابدين وفي هذا المقام . . . « يلبسني الله في البرد فيحما من محبته . . . وفي الصيف مذاق برد محبته (١) وفي هذا المقام « لادنيا ولا آخرة ، ولا ثواب ولا جزاء . . . ولا حور . . . ويطلع الله أنك لا تريد من الدنيا والآخرة . . . إلا هو (٢) » وحيث لا يخطر بقلبك ذكر الخلق (٣) . وتسمعون ليلاً على أبي سليمان الداراني . . . وكان هو هناك مخلوع العذار يصرخ في الله « يارب : إن طالبتي بسريرتك ، طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتي بذنوبي ، طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار ، أخبرني أهل النار بحبي إياك (٤) » . . . وفي هذا من الدلال ما فيه . . .

وأخيراً . . . وقد أفعمه الدلال . . . وأخذ يبكي فسأله تلميذه « ما يبكيك فقال لي : يا أحمد ، ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ، ونامت العيون وهذأت النفوس . وخلا كل حبيب بحبيبه واستارت قلوب العارفين ، وتلذذت بذكر ربهم ، وارتفعت همهم إلى ذى العرش ، واقترب أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وقطرت في محاربيهم خوفاً واشتياقاً ، أشرف الخليل سبحانه فأمدهم بحباة وسروراً . فقال لهم أحبائي والعارفين بي ، اشتغلوا بي ، وألقوا عن قلوبهم ذكروا بي ، أبشروا فإن لكم عندي الكرامة والقربة يوم تلقوني ، فنادى الله جبريل عليه السلام : بعيني من تلذذ بكلامي . واستراح إلى ، وأناخ بفسائي ، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم ، أسمع أنينهم وبكاءهم ، وأرى تقبلهم واجتهادهم ، فيهم يا جبريل ما هذا البكاء الذي أسمع ، وما هذا التضرع الذي أرى منهم هل سمعتم أو أخبركم أحد أن حبيباً يعذب أحبائه ، أو ما علمتم أني كريم ، فكيف لا أرضى . أبشبه كرمي أن أرد قوماً قصدوني ، أم أذل قوماً تعزروا بي ، أم كيف أحجب غداً أقوماً آثروني على جميع خلقي ، وعلى أنفسهم أو تنعموا بذكري . أم كيف يشبه رحمتي ، أو كيف يمكن أن آيت قوماً تملقوا لي وقوفاً على أقدامهم ، وعند البيات أخزوهم ، أم كيف يجعل لي أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقوني ، وكيف كانوا ، انقطعوا إلى ، واستراحوا إلى ذكري ، وخافوا عذابي ، وطلبوا القربة عندي ، فبي حلفت ، لأرفعن الوحشة عن قلوبهم ، ولأكونن أنيسهم إلى أن يلقوني ، فإذا قدموا على يوم القيامة ،

(١) القشيري : الرسالة ص ٧٠٥ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٠٧ .

(٣) السلمي : طبقات ج ٧٩ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٥٥ .

فإن أول هديتي إليهم أن أكشف لهم عن وجهي ، حتى ينظروا إلي ، وأنظر إليهم ثم لهم عندي مالا يعلمه غيري (١) .

هذا هو المقام الأخير عند أبي سليمان الداراني - اختلط فيه « الحب » « بالخلقة » وتأثر فيه بكلامها . ثم انتهى إلى أن غاية الحب هو « الرؤية السعيدة » ونلاحظ هنا تماماً تأثره بأصحاب الخلقة من البصرة ، وقد أثروا عليه أيضاً في نظريته « الروحانية » وقد امتلأت أخباره بذكر تنعمه بالروح والريحان ومقابلة الحور العين ، بحيث يمكننا أن نقول : إن أبا سليمان الداراني ومدرسته . كانوا امتداداً لما أصياهم الفقهاء والمحدثون « بزنادقة الزهاد في البصرة . وأعتقد أن أبا سليمان الداراني كان في نظريته عن الحب تلميذاً لرابعة العدوية البصرية بل يستخدم عباراتها ، وسيؤثر هو بدوره في رابعة الشامية ، رابعة بنت إسماعيل . كما نرى أيضاً مجموعة كبيرة من الإسرائيليات تدخل في تراثه .

#### (و) الأحوال :

رأينا أبا سليمان الداراني يتكلم عن المقامات . ويضع أسس بعضها . ولست - كما قلت - أقرر أنه وضع المقام ، ووضح الحال . وأعطانا مفهوم كل منها . إنه تكلم عن درج ، وأحياناً تظفر منه بكلمة « مقام » ولكنه لم يضع كل هذا في صورته الفنية - كما عرفها صوفية القرن الثالث إلى حد ما ثم القرن الرابع في صورة حاسمة . ولكنه كان لأبي سليمان الفضل في أنه وضع الكثير من مفهومات هذا المقام ، التي ذكرنا البعض ، وحاولنا تركيبه ، وتركنا البعض الآخر ، لأن مالدينا من شذرات باقية لانكني لتوضيح آرائه توضحاً متكاملًا . . . ومن الأمثلة على هذا مفهوم اليقين ، واليقين مقام كبير لدى الصوفية ، تظفر منه بعبارات من أمثال مقام الصدق فهو يقول « لكل شيء معدن ، ومعدن الصدق قلوب الزاهدين » ومقام المحاسبة (٢) . . . وقد تظهر نصوص أخرى للباحثين تلقي الضوء على كل هذه المفهومات لديه . . . وهنا يأتي السؤال : هل ذكر الأحوال . . . بلاشك إنه ذكر مفهوماتها ، ولكنه لم يذكر فيها لدى من شذرات - مصطلح الحال . وإن كان فيما يرجح يعلم الفرق بين مفهوم كل من المقام ومن الحال . والمقام - كما هو معلوم - هو ما يتحقق به العبد بمنزلة من الآداب الصوفية ، أي بما اكتسبه . أما الأحوال - فعاني ترد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ، ويقرر أبو سليمان الداراني علو المقام على الحال . ويسمى المقام « وطن » واليقين « خاطر » ونظفر منه هذا حين يقول « الإيمان

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٦ / ١٧ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) السلي : طبقات الصوفية ص ٨٠ - ٨٣ .

أفضل من اليقين ، لأن الإيمان وطنات ، واليقين خطرات<sup>(١)</sup> فالإيمان وطن باق أى «مقام» واليقين وارد أى «حال» يأتى ويذهب ، ويقوى ويضعف «إذا جاء الطلب ، ضعف اليقين»<sup>(٢)</sup> .

ولما كانت الأحوال غير منتظمة اهتم أبو سليمان الداراني بها واهتم بالقلب وهو الذى يتلقى هذه الخطرات أشد الاهتمام ، اهتم بتقنيته وتصفيته حتى يكون على استعداد لما يفجأه من الواردات . . . وإن الواردات تحل بالقلوب ، ولا بد لكى ترد صافية ، أن يكون القلب صافياً . وفى الحقيقة كان أبو سليمان الداراني طبيب القلوب . . . وقد دخل فى أعماق هذا القلب حين يقول «إذا صارت المعاملة إلى القلوب ، استراحت الجوارح» ويفسر صاحب اللمع هذا بقوله «إن كلام أبى سليمان الداراني يحمل معنيين : أحدهما : أنه أراد بذلك : استراحت الجوارح من المجاهدات والمكابدات من الأعمال : إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة ، والعوارض المذمومة التى تشغل قلبه عن ذكر الله - ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك : أن يتمكن من المجاهدة والأعمال والعبادات ، وتصوير وطنه ، حتى يستلذها بقلبه ؛ ويجد حلاوتها ، ويسقط عنه التعب ، ووجود الألم الذى كان يجد قبل ذلك»<sup>(٣)</sup> . . . والأحوال ترد ليلاً ، وقد قلنا من قبل إن أبى سليمان الداراني قد اهتم أشد الاهتمام بالليل ، واعتبر رواد الروح هم أهل الليل . ولذلك تفجأهم الأحوال فى عتمة الليل «رأيت الفوائد ترد فى ظلم الليل» هـ والتفسير الصوفى الذى وضع لمصطلح الفوائد - فيما بعد هى أنها «تحف الحق لأهل معاملته فى وقت الخدمة بزيادة الفهم للتنعم بها»<sup>(٤)</sup> . والأحوال خاصة العارف «إن الله يفتح للعارف - وهو على فراشه ، ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلى»<sup>(٥)</sup> .

وقد خاض أبو سليمان الداراني فى مفهوم الأحوال وقدم لنا بعض الأقوال الفريدة سأذكر منها مثالين : أما الأول : فهو حال المراقبة ، والمراقبة هى علم العبد بإطلاع الله عليه ، ويقول أبو سليمان الداراني «كيف يتخفى عليه ما فى القلوب ، ولا يكون فى القلوب إلا ما يلقى فيها ، أفيتخفى عليه ما هو منه»<sup>(٦)</sup> . فالمراقبة إذن من ناحية حال إلهية ، إنه يطلع على الضائر ، مراقباً للخواطر المذمومة التى تشغل قلب السالك عن ذكر الله . . . أما الجانب الثانى من هذا الحال - وهو الحال الإنسانى - أى من

(١) السراج : اللمع ص ٤٤٦ .

(٢) السلمى : طبقات ص ٨٠ - ٨٣ .

(٣) السراج : اللمع ص ٦٦ .

(٤) نفس المصدر : ص ٤١٥ .

(٥) القشيري : الرسالة ص ٦٠٧ .

(٦) السراج : اللمع . ص ٨٢ .

راقب الحق بالحق - أى من راقب الله بالله فى فناء مادون الحق ، فلم يذكر الداراني شيئاً عنه . والأمم لم يكن قد استقر بعد - فيما يخص « المصطلح » ونماذجه المختلفة . أما الحال الثانى الذى ذكره الداراني - فهو حال الطمأنينة ، وهو حال قرآنى ، عبر الله عنه فى الآية المشهورة « يأتى النفس المطمئنة » وهى سكون القلب إلى الله ، وائتناسها به ، ثم يعتبره الكشف « وقد قال أبو سليمان الداراني : النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت » وقد شغل هذا القول الشبلى الصوفى البغدادي المشهور ، ففسره بقول « إذا عرفت النفس من يقوتها اطمأنت »<sup>(١)</sup> .

• • •

وبعد : فهذا إجمال تركيبى للأفكار وللآراء التى ألقى بها أبو سليمان الداراني فى مجرى الحياة الروحية الإسلامية . ولا شك أنه خطأ بهذه الحياة خطوات كبيرة نحو تكوين المذهب الصوفى الكامل ، إنه نقل الحياة الروحية فى الشام من لمحات متناثرة فى « الجوع » وفى « التعب » وفى « التقراً » إلى حياة ضخمة مليئة بالأفكار الساطعة ، محاولاً أن يدرجها فى نسق مذهب . ويمكننا أن نقول : إنه وضع - نظرية الزهد - فى صورة متكاملة ، ثم خاض فيها سيرف فيما بعد . بالتصوف . فتكلم فى مقاماته وأحواله ، ولم يحفظ لنا التاريخ الكثير من أقواله . . . . . ولقد عرف كلمة الصوف ، وهو يقول « الصوف علم من أعلام الزهد »<sup>(٢)</sup> ولكنه ينهى عن لبسه للشهرة<sup>(٣)</sup> . ويذكر كلمة صوفى « فيقول : وما رأيت صوفياً فيه خير إلا واحداً عبد الله بن مرزوق »<sup>(٤)</sup> . . . . . فهل كانت الصوفية فى عهده - فرقة خاصة ، تتميز بأشياء معينة ، تبعدها إلى حد كبير عن الحياة الروحية الخالصة . أو بمعنى أدق كانوا مجموعة من الحكماء الذين اشتغلوا بالكيمياء ، ولبسوا الصوف ، رياء . إن أباسليان الداراني يتكلم كثيراً عن الثياب وأنواعها ، ثوب الله ، وثوب للنفس ، وثوب للناس . . . . . لقد شغلته مسألة الصوف ، وها هو ذا يقول : إنه لم يجد صوفياً فيه خير إلا عبد الله بن مرزوق .

وأخيراً . . . . . اجتمع فى أبى سليمان الداراني جميع ثقافات العباد السابقين ، من إسرائيليات وغير إسرائيليات ، ومن تراث الكوفة والبصرة . ولكن زاد على كل هذا بأقواله فى المعرفة . فهل كانت أقواله هذه نهاية لتطور الحياة الروحية من قبله ، أم أنه تأثر « بالغنوص » . وكان الغنوص يقرر أن المعرفة إنما تتفدح فى النفس أو فى القلب انقداحاً مباشراً . أو بمعنى أدق هل تأثر أبو سليمان الداراني بالأفلاطونية

(١) السراج : اللع ص ٩٨ .

(٢) القشيري : الرسالة ص ٢٩٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٧٤ .

(٤) نفس المصدر ج ٩ ص ٢٦٥ .

المحدثة وغنوصها أو بالمذاهب الثنوية الفارسية الغنوصية . أم أنه كان في محيط إسلامي بحث يطور « فكرة العلم اللدني » القرآنية ، وسير في نقها الإسلامي . إن ما بقي من نصوص أبي سليمان الداراني لا يدعم أبداً اتصاله بالغنوصية ، بينما يرجح أنه كان في وسط إسلامي بحث ، وقد دعا هذا إلى أنه سلم من هجمات ابن تيمية ، عدو التصوف الفلسفي المشهور ، بل إنه كان يحل الداراني أشد الإجلال ، ويمدحه في كثير من كتبه ورسائله . ونأتي إلى نقطة أخيرة : وهي صلته بالمسيحية أو بمعنى أصح بالرهبان . وقد ذهب الدكتور كامل الشيبني إلى أن أبا سليمان الداراني كان يتبع تقليداً مسيحياً واضحاً حين ربط بين الشيع واللذة الجنسية ، ولذلك نهى عن الشيع ، ودعا إلى الجوع... (١) . وما يرجح رأى الدكتور الشيبني أيضاً في تأثير الداراني بالمسيحية هو أنه دعا إلى العزوبة ، والتحلل من الولد... ولكننا إذا تعمقنا النصوص ، نرى أن أبا سليمان الداراني قد ذكر الرهبان وقابل تلميذه البعض منهم . وكان أبو سليمان يعجب بمعيشتهم في المقاوز والبراري ، ويرى أنهم أوتوا جزءهم في هذه الحياة ، لذة العبادة وجمالها . ولكنهم سيحرمون منها في الآخرة ، إنهم لم يصلوا إلى « جوهر الإسلام » ، ولم تصبهم آثار « المعرفة » . وذكر هذا لتلميذه أحمد بن أبي الخوارى . أما موقفه من الحياة الأسرية ، فقد تزوج الداراني وكان ابنه « سليمان » من أكابر العباد ، وقد قلنا من قبل إن الكثيرين من الصوفية كانوا يفضلونه على أبيه حقاً إنه قال : من تزوج أو كتب الحديث أو طلب معاشاً ، فقد ركن إلى الدنيا » ثم قرأ قول الله « إلا من أتى الله بقلب سليم » وقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى... « ولكن كان كل متصلاً عنده بالزهد في الدنيا ، والدنيا كل ما يشغلك عن الله ، والتفرغ له فقط أو تفرغ القلب من هموم الدنيا للآخرة... ولكنه ما يلبث أن يرى أن في هذا خروجاً على الطبيعة الإنسانية فيقول « الزهد في كل شيء » ، حتى يتزوج الرجل المعجوز أو غير ذات الهيئة إثارة للزهد في الدنيا (٢) . ثم إن تلميذه أحمد بن أبي الخوارى تزوج مراراً ، ولم ينكر عليه .

وبعد : فقد كان لأبي سليمان الداراني الأثر الكبير في الصوفية من بعده : لقد رأينا الشبلي يفسر أقواله ، كما نرى الحارث المحاسبي الصوفي البغدادي المشهور يشغل به أشد الشغل ، فيفسر قول أبي سليمان « أقرب ما يتقرب به إليه ، هو أن يطلع على قلبه ، وهو لا يريد من الدنيا والآخرة غيره » فيقول الحارث المحاسبي معلقاً بأنه « دليل على أن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله ، كل عمل عمله بالإخلاص لله ، والإشفاق عليه من عدوه ، وإن قل ذلك فهو المقبول ، إذا كان على حقيقة التقوى معمولاً » ثم يورد قول علي بن أبي طالب « عمل صالح دائم مع التقوى ، وإن قل » ، ويرى المحاسبي

(١) الدكتور الشيبني : الصلة... ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) أبو طالب المكي : قوت القلوب : ج ١ ص ٥١١ .

أنه كيف يكون قليلاً ما يتقبله الله . يقول « وذلك أن المحب لله هو على الركن الأعظم من الإيمان الذي يمكن أن يستكمله العبد<sup>(١)</sup> . إذن فقد أدرك المحاسبي أن قول أبي سليمان الداراني هو في المحبة . كما يفسر المحاسبي قول الداراني « مرجع من وصل ، ولو وصلوا مارجعوا » ويرى المحاسبي أن قول الداراني يحتمل أجوبة كثيرة . . . أولها : أن أبا سليمان الداراني أراد أن يحرض المريدين لتلا بيلوا إلى الفتور ، ويحترزوا من الانقطاع ، ويجدوا في الطلب والاتصال والقربة إلى الله ، وثانيها يحتمل أن يكون أراد عالياً - أى أراد فكرة صوفية سامية وهي : مرجع إلى الزلل من وصل إلى صافي العمل ، وثالثها مرجع إلى وحشة الفتور من تقحم في المقامات السنية من الأمور وهي فكرة صوفية سامية أيضاً . . . ورابعها مرجع إلى ذل عبودية المخلوقين من وصل إلى طيب روح اليقين . . . وإذن وجد أبو سليمان الداراني مفسراً له في الحارث المحاسبي . . . يفسرها على مختلف الوجوه<sup>(٢)</sup> كما أنه يستشهد به في مقام التوكل وصعوبته<sup>(٣)</sup> .

بل إننا نرى الإمام أحمد بن حنبل يشغل به ، فقد التقى أحمد بن حنبل بأحمد بن أبي الحواري تلميذ أبي سليمان وراويه بمكة : وطلب ابن حنبل من ابن أبي الحواري أن يحدثه بحكاية سمعها من أستاذه الداراني : فقال له الحواري : « سمعت أبا سليمان يقول : « إذا اعتقدت النفوس على ترك الآثام ، جالت في الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة ، من غير أن يؤدي إليها عالم علماً » ومن الواضح أن ابن أبي الحواري يورد لابن حنبل حديث أستاذه في العلم اللدني ، للعلم الذي يلتقي في النفوس وفي القلوب إلقاء ، إذا تخلصت من الشهوات والأوزار ، وصفت ، وعرجت عروجها إلى آفاق الملكوت . وكان ابن حنبل ينكر عادة هذا الطريق : طريق الحدس ، أو طريق الذوق . ولكنه حين استمع إلى حديث أبي سليمان . قام ثلاثاً وجلس ثلاثاً : وقال : ماسمعت في الإسلام حكاية أعجب من هذه إلى . ثم ذكر حديثاً نبوياً يؤيد قول الداراني « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لم يعلم ثم قال لأحمد بن أبي الحواري « صدقت يا أحمد ، وصدق شيخك<sup>(٤)</sup> » . ولاشك أن أبحاثاً أخرى في التراث الصوفي بعد أبي سليمان الداراني ستكشف لنا عن الكثير من آثاره وتناول آرائه لدى الصوفية اللاحقين ، غير أن آراء مدرسته نفسها قد عاشت بعده - في تلميذين من أكبر تلامذته هما : أحمد بن أبي الحواري وقاسم الجوعى .

(١) أبو نعم : الحلية ج ١٠ ص ٨٤ .

(٢) أبو نعم : حلية ج ١٠ ص ٩٢ .

(٣) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٠٤ .

(٤) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٤ ، ١٥ .

## ٢- أحمد بن أبي الحواري :

أما أحمد بن أبي الحواري (توفى عام ٢٣٠هـ). فقد نشأ في أسرة زاهدة. يقول السلمي : وله أخ يقال له محمد بن أبي الحواري ، يجرى مجراه في الزهد والورع . وابنه عبد الله بن أحمد بن أبي الحواري من الزهاد - وأبوه - أبو الحواري ، كان من العارفين الورعين أيضاً ، فيتهم بيت الزهد والورع<sup>(١)</sup> وقد صحب المشايخ الكبار - من محدثين وصوفية ، وكان من أعظم هؤلاء مضاء بن عيسى ، وأحمد بن عاصم الأنطاكي ، كما أخذ الحديث أيضاً عن سفيان بن عيينة ومروان بن معاوية القراري وبشر بن السري ، وأبي عبد الله البناسي ، غير أن أعظم صحبته كانت لأبي سليمان الداراني ، بحيث يعتبر راويه ومحدثه وامتداداً واضحاً له . ثم تزوج ابن أبي الحواري برباعة بنت إسماعيل ، الصوفية الشامية المشهورة ، وتلمذ الاثنان على الشيخ الكبير الداراني ، وأخذوا سوياً من معينه .

ويبدو أنه نشأ محدثاً ، ومما يثبت هذا العدد الكبير من المحدثين الذين قابلهم وأخذ عنهم . ويذكر المؤرخون أنه طلب العلم ثلاثين سنة ، فلما فرغ من التعليم ، جلس للناس لكي ينشر علمه ، وهنا فجأه « خاطر من قبل الحق » فحمل كتبه إلى شاطئ الفرات ، ففرقها وقال : يا علم لم أفعل هذا بك تهاوناً بك ولا استخفافاً بحقك ، ولكن كنت أطلبك لأقتدى بك إلى ربي ، فلما اهتديت بك إلى ربي ، استغنيت عنك » ، ثم جلس يبكي ساعة ثم قال : نعم الدليل كنت لي على ربي ، ولكن لما ظفرت بالمدلول ، كان الاشتغال بالدليل محال<sup>(٢)</sup> . . . وقد عبر أجمل تعبير دليل عن نظرتة في العلم بقوله « لا دليل على الله سواه : وإنما يطلب العلم لآداب الخدمة » وبهذا عبر أحمد بن أبي الحواري عن « طريق الصوفي » في دقة متناهية ، لا بد أن يبدأ الصوفي بالعلم - من حديث وسنة ، وفقه ، ومعرفتهم دراية ورواية ، وهذه العلوم هي الدليل على الله ، وفيها ترويض لنفس الإنسان على معرفة آداب الخدمة ، الوقوف عند الحدود - في الحضرة الإلهية ، ولكن حين تتوالى الخطوط ، ويصبح الخطاب مباشراً من الله ، حين يظفر « الزاهد » بالمدلول ، بالجواهر الإلهي ، حياً دائماً في قلبه لم يعد في حاجة للأدلة ، اختفى الدليل وبقى المدلول ، وذهبت العواصف بالآثار ، وبقى المؤثر « ولم يعد دليل على الله سواه » ، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال . ولا عجب بعد ذلك أن يقول الجنيد سيد الطائفة في بغداد « أحمد بن أبي الحواري ربحانة الشام » ويقول يحيى بن معين - وقد ذكر اسم أحمد بن الحواري إمامه « أظن أهل الشام يسقيهم الله الغيث به » ويذكر محمود بن خالد « ما أظن بقي على وجه الأرض مثله<sup>(٣)</sup> » .

(١) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢١٢ .

(٢) السلمي : طبقات ص ٩٩ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٧٦ .

ولقد أخفت شهرة أستاذه الداراني وطول ملازمة أحمد بن أبي الخوارى له ، آراء هذا الأخير ، وفي الحق أنه كان امتداداً له ، وقد أعطى أحمد بن أبي الخوارى صورة جميلة لعلاقة المرید بشيخه ، كان يعرض عليه كل دقائق حياته . . . المادية منها والروحية ، وأخبار رحلاته ، ومقابلاته للرهبان - ويقوم الشيخ بقيادته الروحية أحسن قيادة .

وقد يقال : إنه كان للرهبة المسيحية أثر في حياته ، وبخاصة أن مقابلاته لهم كانت متعددة ، وهو يذكر نفسه أنه قابلهم . ومن الأمثلة على هذا مقابله لراهب في دير حرمله ، اسمه جريج ، أشرف عليه من الدير ، فسأله أحمد بن أبي الخوارى : ما يجسك في هذه الصومعة ، فرد عليه الراهب : حبست فيها عن شهوات الدنيا . فقال أحمد بن أبي الخوارى : أما كان يستقيم أن تذهب معنا ههنا في الأرض وتجيء وتمنع نفسك الشهوات ، فرد الراهب : هيات - هذا الذي تصف أنت قوة ، وأنا في ضعف ، فحلت بين نفسي وبينها . فسأله ابن الخوارى : ولم تفعل ذلك . قال الراهب : نجد في كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه خلق من ملكوت السماء ، فإذا أجاج بدنه وأعراه ، وأسهره ، نازع الروح إلى الموضوع الذي خرج منه ، وإذا أطعمه وسقاه ونومه وأراحه ، أخذ البدن إلى الموضوع الذي خرج منه ، فلم يكن شيء أحب إليه من الدنيا . . . ويجيب أحمد بن أبي الخوارى : فإذا فعل هذا ، تعجل له في الدنيا الثواب<sup>(١)</sup> . . . ويفسر هذا قول أبي سليمان الداراني « ما قووا على ما هم فيه من المفاوز والبرارى إلا بشيء يجذونه في قلوبهم ، لأنه قد تعجل له ثوابهم في الدنيا ، لأنه ليس لهم في الآخرة ثواب<sup>(٢)</sup> » . إنهم يجذون لذة العبادة ، وامتلات قلوبهم بحب الملكوت ، ولكن لا ملكوت لهم في السماء ، إنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ . وتلك الرسالة - عند صوفية الإسلام هي المحك الحقيقي لأنوار الحقيقة ، وللثواب الأبدى في ملكوت السماء .

حقاً : إن أحمد بن أبي الخوارى ذكر الكثير من الإسرائيليات ، كما ذكرها غيره من الزهاد ، وكانوا يترددون على الرهبان ، ويتردد عليهم الرهبان . . . وسيدعى أحمد بن أبي الخوارى « بالطيب الراهب » ولكن لم يكن معنى هذا إطلاقاً أن الزهاد المسلمين كانوا صورة من رهبان المسيحيين . لقد آمن الزهاد المسلمون أن بين طريقتهم وطريقة الرهبان يونياً شاسعاً ، سواء في طريق السلوك ، أو في غاية التصوف . وإذا ما نظرنا إلى حياة أحمد بن أبي الخوارى الأسرية ، فإننا نجد أنها تختلف أشد الاختلاف عن حياة الرهبان ، لقد تزوج ، بل تزوج أربعة من النساء ، وكانت آخرهن رابعة بنت إسماعيل . وتعلمد الاثنان على يد أبي سليمان الداراني ، وفي حلقة تفتي الاثنان بالحب الإلهي . وكثيراً

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٥ .

(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٧١ .

ما كان يذكر لشيخه أنه قضى الليل في صحبة نساؤه ، ولم ينكر عليه الشيخ ، سوى إغراقه في مجالسة النساء . ولم يمنع هذا إطلاقاً من أن يكون أحمد بن أبي الخوارى « ربخانة » عباد الشام وسيدهم بعد وفاة شيخه .

وأخيراً . . . ماذا كانت آراء أحمد بن أبي الخوارى الزهدية . هل ردد آراء أستاذه فقط وغيره ، وقد كان راوية لكثير من الصوفية . أما أنه تجاوز آراءهم متجهاً نحو أعماق التصوف ، في خطى أكثر من أستاذه ، لقد كان عمل أحمد بن أبي الخوارى الأكبر أنه نقل إلينا آراء الزهاد المتعددين في عصره ، نقل عن أستاذه أبي سليمان الداراني - كما قلت - كما قدم لنا لمحات مضاء بن عيسى الزاهد الشامي المشهور في الزهد ، كما فعل هذا عن العباد الآتية أسماؤهم : عتبة بن أبي السائب ، وبشر بن السري وإسحق بن خلف وعبد الله الحذاء وعبد العزيز بن عبد عمير وأحمد الموصلي ووكيع بن الجراح وأسماء الرملية . كان أحمد بن أبي الخوارى ينقل كلامهم . ولكن لاشك أنه ترك هو نفسه أقوالاً تعبر عن آرائه .

تكلم أحمد بن أبي الخوارى في طريق الاستنباط القرآني ، كما تكلم أستاذه ، وتكلم عن الحيرة ، وهو مقام سيرف بعد عند الصوفية « مقام الهبان . يقول « إني لأقرأ القرآن ، فأنظر في آية ، فيحار عقلي فيها . وأعجب من حفاظ القرآن ، كيف يهينهم النوم ، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا ، وهم يتلون كلام الرحمن . أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه ، وتلذذوا به ، واستحلوا المناجاة به ، لذهب عنهم النوم ، فرحاً بما رزقوا ووقفوا<sup>(١)</sup> » . وهو توضيح يكاد يكون تحديداً لمنهج الاستنباط ، يحار العقل في الآية ، ويطبّقون عليها منهج التأمل الباطني ، فترد عليهم المناجاة الإلهية وتتوالى عليهم الفحاحات : العلم اللدني .

ولكى تصل إليه الفحاحات اللدنية ، فلا بد وأن يترك الدنيا « الدنيا مزيلة ويجمع الكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فإن الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف ، والحب لها لا يزالها بحال<sup>(٢)</sup> » . وهذا جوهر الطريق عنده . وهو نفسه شاعر بحقيقة الطريق ، وتساءله إحدى العابدات القرشيات عن طريق النجاة . فيقول « هيات ، إن بيننا وبين طريق النجاة عقاباً ، وذلك العقاب لا يقطع إلا بالسير الخيث ، وتصحيح المعاملة ، وحذف العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة » عجباً هل وضع في هذا الزمن فكرة قطع العلائق ، وخرق العوائد . . . إن هذه العابدة ترد قائلة : « يا أحمد : سبحان من أمسك عليك جوارحك ، فلم تنقطع ، وحفظ عليك فؤادك ، فلم يتصدع<sup>(٣)</sup> »

(١) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٠٢ وأبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٢٢ .

(٢) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٠٢ . (٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١١ .

ثم غشى عليها . ولم تدرك أبداً . . . أنها كانت في حالة محو مطلقة ، أوفى حالة فناء كامل ، وكان هو « الشيخ العتيد » في حالة صححو مطلق أوفى حالة فناء عن الفناء ، في حالة بقاء كامل ، وهذا هو حال القطب في هذا الطريق .

لا بد إذن للطريق ، لطريق الزهد من إخراج الدنيا كاملة من القلب ، حتى يسكن نور اليقين فيه<sup>(١)</sup> ولا بد أن تترك الدنيا عند إقبالها ، أما إذا حدثت النفس الإنسان بتركها عند إدارها . . . فهو خدعة<sup>(٢)</sup> . ولا بد لمن عرف الدنيا ، أن يزهد فيها ، ومن عرف الآخرة أن يرغب فيها ، ولكن فوق هذا وذاك ، لا بد من معرفة الله ، فمن عرفه ، لم يأبه لا بالدنيا ولا بالآخرة ، إنما يكون في الرضا . وإذا طلبوا رضاه بقظة ومناماً ، توالت عليهم إفاداته ، بقظة ومناماً<sup>(٣)</sup> ، وأصبحت الحقائق في أيديهم في كل حين .

وفي مقام « الرضا » يعرف الإنسان نفسه ، وإلا فهو في غرور ، « وما ابتلى الله عبداً بشيء أشد من الغفلة » من الغفلة عن حقيقة نفسه ويعقب الغفلة « القسوة » . . . وإذا رأيت من قلبك قسوة فجالس الذاكرين ، واصحب الزاهدين ، وأقلل مطعمك واجتنب مرادك ، وروض نفسك عن المكاره<sup>(٤)</sup> فإذا عرف الإنسان نفسه ، عرف كل شيء في الطريق .

وأخيراً . . . أخذ يعدد في عظة لله مقامات العباد « انقطع إلى الله - وكن عبداً زاهداً صادقاً متوكلاً مستقيماً عارفاً ذاكراً مؤناً مستحياً خائفاً ، راجياً راضياً » والرضا - عنده - كما عند شيخه من قبل درج العارفين الكبير - « وعلامة الرضا أن لا يختار شيئاً إلا ما اختاره له مولاه ، فإذا كان ذلك كذلك ، كان له من الله عوناً ، حتى يرده إلى طاعته ، والطاعة ظاهرة وباطنة فلا يكون العبد في الطاعة ، والطاعة باب الرضا ، حتى يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب . . . ويرد المظالم فيما بينه وبين التامس ، وهذا هو درج التوبة ، ثم يجتهد في العبادة ، يقضى الليالي الطوال فيها ، « فيتشعب له من الاجتهاد الزهد ويتشعب له من الزهد الصدق ، ثم يتشعب له من الصدق ، التوكل ، ثم يتشعب له من التوكل ، الاستقامة ، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة » ثم يتشعب له من المعرفة الذكر ، ثم يتشعب له من الذكر الخلاوة والتلذذ ، ثم بعد التلذذ الأنس ، ثم بعد الأنس بالله الحياء ، ثم بعد الحياء ، الخوف ، وعلامة الخوف الاستعداد ، والتحويل من هذه « الأحوال » وأحمد بن

(١) السلي : طبقات ص ١٠٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٧ .

(٣) السلي : طبقات ص ١٠١ .

(٤) نفس المصدر : ص ١٠٢ .

أبي الحواري يسميها هنا أحوالاً ، لا يعنى أبداً أن يتحول من قلبه خوف عدم لقائه . إنه في خوف دائم من عدم هذا اللقاء . إنه يتطلب الرؤية ، إنه في درج أو مقام الحب <sup>(١)</sup> .

وهنا يتغنى أحمد بن أبي الحواري بالحب الإلهي ، والحب من الله أولاً « إذا أحب الله العبد أحبه ، ولا يستطيع العبد أن يحب الله ، حتى لا يكون الابتداء منه بالحب له ، وذلك حين عرف منه الاجتهاد في مرضاته » فإذا أحب الله العبد ، بادلته العبد المحبة ، بحب طاعة الله ، وبحب ذكره <sup>(٢)</sup> .

والمحبون هم المقربون ، والمقربون اصطلاح قرآني ، وإن كان أبي الحواري يطلقه هنا على لسان عيسى <sup>(٣)</sup> . والموت طريق المحب إلى المحبوب . ولذلك لم يكره إبراهيم الموت . كيف يكره الخليل لقاء خليله <sup>(٤)</sup> . وقد عاش أحمد بن أبي الحواري في وسط موج بالحب الإلهي . ولقد ذكرنا من قبل أقوال شيخه الداراني في المحبة ، كما تزوج أحمد بن أبي الحواري صوفية الحب رابعة بنت إسماعيل ، كما كان على صلوات وثيقة بأسماء الرملية . وقد كانت أسماء أيضاً من صوفيات المحبة الإلهية <sup>(٥)</sup> . وفي « درج الحب » ، ولم يكن يعرف مصطلح المقام بعد تغنى الجميع بالحب الإلهي .

من هذا نرى أن أحمد بن أبي الحواري تعمق آراء أستاذه . إنه لم يخط خطوة أكبر منه ، ولكنه يتميز بملاحظته الخاصة به . ولكننا لا نرى أى تطور في المصطلح الصوفي ، إنه يستخدم نفس مصطلحات أستاذه ، بل إنه يستخدم كلمة الدرج في مقابل المقام ، ولا يستخدم مصطلح الحال ، استخداماً مستقراً ، بل يخلط بينه وبين المقام .

### ٣ - قاسم بن عثمان الجوعى :

أما الشخصية الثانية التي تمثل مدرسة الشام عامة ، ومدرسة أبي سليمان الداراني خاصة ، فهي شخصية قاسم بن عثمان الجوعى . وقد لقبه أحمد بن أبي الحواري « بالجوعى الكبير » <sup>(١)</sup> . ويبدو أن دخوله في الطريق كان على يد عابد في طريق الشام . فقد خرج القاسم بن عثمان إلى الحج ، وبينما هو يسير في الليل ، إذ غلط في الطريق . وسمع صيحة ، فإذا جماعة قد ضلوا الطريق أيضاً ، ووقفوا على رجل من المتعبدين المنتشرين في الصحراء في صومعته ، وكان يبكي . واستمع إليه قاسم يقول :

« أترى بكائي نافعاً عندك ومتقد رقتي من حركك . أتراك آخذاً من نفسي بحمك ، وموئجها على رؤوس الأشهاد بما ضيعت من أمرك . أوه لكشف سترك عنى . أوه لوقوفي بين يديك . يا سيده . ولما سكت

(١) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٠ .  
 (٥) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٣ .  
 (٦) ابن الجزري : صفوة ج ٤ ص ٢١١ .

(١) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٨ .  
 (٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٧ .  
 (٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٨ .

قال له بعض الناس : إنا غلطنا الطريق . فقال العابد : وأنا أيضاً غلظت الطريق . فن لي ولكم بالاستقامة على وجهها . . . ثم نادى : يا دليل الأدلاء - دلي ودلهم ، ولا تحيرني وإياهم (١) ، فكشف لنا عن الطريق . فسلكتاها . . . وتركناه واقفاً في صومعته . والقصة رمزية كما نرى - هي دعوة للقاسم . . . أنه غلظ الطريق . . . ولا بد له من أن يعود إلى طريق الله - طريق العباد . . . فنين له الدليل . فعاد من حجه إلى الشام ، وقد اتخذ العزم على ولوجه ، وبدأ الطريق « بالجوع » . ويبدو أن قاسماً الجوعى ذهب بالجوع إلى أقصى مداه ، إنه اعتبر الدنيا « الشبع وأكل الشهوات » فلا بد إذن من أن يزهد العابد في الجوف « الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، بقدر ما تملك من بطنك ، كذلك تملك من الزهد (٢) » و« الجوع مخ العبادة (٣) » . ويقول في موضوع آخر ، حين سئل أيضاً عن الزهد ، فقال : « اعلم أن البطن دنيا العبد ، وبمقدار ما يملك من بطنه ، يملك من الزهد ، وبمقدار ما يملكه بطنه ، تملكه الدنيا (٤) » وهو نفسه يشرح لم سمى نفسه بالجوعى ، فيقول : « تركت ما تركت ، ولم أوت بالطعام لم أبال ، رضيت نفسى ، حتى لو تركت شهراً وما زاد ، فلم تأكل ولم تبال ، أنا عنها راض أسوقها حيث شئت ، فأنا أسجنها حيث شئت . اللهم أنت فعلت ذلك بي ، فأتمه على » . فأبو القاسم الجوعى ، لا يعتبر الجوع غاية في ذاته ، وإنما هو طريق لترويض النفس ، يروضها كما تشاء . . . وبدل الشبع المادى . . . الشبع الروحى وهو المحبة . . . شبع الأولياء بالمحبة عن الجوع ففقدوا لذات الطعام والشراب والشهوات ولذات الدنيا ، لأنهم تلذذوا بلذة ليس فوقها لذة ، فقطعتم عن كل لذة . . . » .

فالقاسم الجوعى إذن يمزج كما يمزج أبو سليمان الداراني الجوع بالمحبة ، ويخطو أيضاً خطوة نحو توضيح حقيقة المعرفة الصوفية ، وأصل المحبة المعرفة ، وأصل الطاعة التصديق ، وأصل الخوف المراقبة ، وأصل المعاصى طول الأمل ، وحب الرياسة أصل كل موبقة « وهو هنا يعتبر معرفة الله أصل كل حب . . . بل إن قليل العمل مع المعرفة عنده خير من كثير العمل بلا معرفة . وكان يقول : « تعرف وضع رأسك ، فاعبد الله بشيء أفضل من المعرفة » .

وأخيراً إن رأس الأعمال كلها الرضا عن الله ، والورع عماد الدين . . . والحصن الحصين ضبط اللسان . ومن شكر الله جلس في ميدان الزيادة ، ومن حمدته . . . عد المصائب نعماً وشكر الله على

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ٣٣١ .

(٢) أبو طالب المكي : توت القلوب ج ١ ص ٥١١ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ٣٢٣ .

(٤) أبو طالب المكي : توت القلوب ج ٢ ص ٣٥٤ .

ذلك ، ولو زويت عنه الدنيا <sup>(١)</sup> .

وبعد : فإن قاسماً الجوعى يمثل مدرسة الشام أصدق تمثيل . . . كان جوهر دعوته الجوع ، وكذلك سمي به ، ولكن الجوع عنده كان قد تطور ، فارتبط بالزهد والنجاسة ، ثم تناول الرجل « المعرفة والرضا » ، خاض في كل هذه « الدرج » ولكن النصوص قليلة . ولم يكن أبو سليمان الداراني وأحمد ابن أبي الخوارى وقاسم الجوعى ، هم وحدهم يحملون لواء الفكرة الجوعية وما يتصل بها من مقامات الزهاد وأحوالهم . بل إننا نرى مجموعة كبرى من العباد ولكن لم يبق لنا من تراثهم سوى القليل : فزرى فكرة الجوع أيضاً لدى مضاء بن عيسى الزاهد الشامي « إن ترك لقمه خير من قيام ليلة » ويتكلم عن المعرفة « الإلهام وربطها بالخوف . فإذا خاف العابد الله ألهمه ، وعمل له ، لا يحتاج الإنسان إلى دليل » خف الله بلهمك ، واعمل له ، لا يلجئك إلى دليل » . وأخيراً يردد نفس تعبيرات أبي سليمان الداراني : « عمل النهار يستخرجه الليل ، وعمل الليل يستخرجه النهار » وكذلك القول المنسوب إلى الداراني « إذا وصلوا إليه ، لم يرجعوا عنه ، إنما رجع من رجع من الطريق » ثم أخيراً يقول « من رجا شيئاً طلبه » وهو يقصد الله « ومن خاف من شيء هرب منه » الدنيا ومن فيها « ومن أحب شيئاً ، آثره على غيره » ، وهو يقصد هنا أيضاً الله <sup>(٢)</sup> .

وكان هناك غير منصور بن عمر أبو كريمة العبدى وبشير الطبرى ، كما أتى أيضاً عباد آخرون من واسط ، ولعلمهم تابعوا خطى الشيخ الكبير الداراني - كأبي عباد الشامي . ثم نرى أيضاً عبارات سيذكرها بعض هؤلاء العباد ، فنسمع على بن الفتح الحلبي يقول في يوم نحر « يارب أرى الناس يتقربون إليك بألوان الذبائح ، وإنى تقربت إليك بمزني <sup>(٣)</sup> » ، وسيقول الحلجاق فيما بعد في يوم نحر أيضاً :

تهدى الأضاحي وأهدى مهجتي ودمي

• • •

#### ٤ - عباد بيت المقدس :

ثم إذا انتقلنا إلى الجنوب - وجدنا عباد بيت المقدس . ومن العجب أن نرى عباد بيت المقدس - فيما يذكر المؤرخون - يقومون بكرامات تشبه معجزات المسيح من إبراء المرضى ، كإدريس بن

(١) أبو نعم : حلية الأولياء ج ١٠ ص ٣ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢١١ .

(٢) أبو نعم : الحلية ج ٩ ص ٣٢٤ ، وابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢١٥ .

أبي خولة (١) . كما أن الكثيرين منهم كانوا يتخفون ، فلا يعرفون .  
وفي رحاب مدرسة الشام أيضاً ظهرت مدرسة على ثغورها ، وعلى جبال لبنان ، كما ظهرت في  
البادية . . . حيث كان يذهب رجال الشام من الزهاد ، ورجال العراق أيضاً من الزهاد ، إلى  
الكعبة ، حيث يقومون بالحج . ولقد تكلمنا من قبل عن رحلات سفبان الثوري ومقابلاته مع شبان  
الراعي (٢) . ومع أبي حبيب البدوي . ونرى نفس الشيء هنا ، ونرى الداراني يبدو في بعض مقابلاته  
مع هؤلاء ، آناً في مقام الشيخ ، وآناً في مقام المريد . . . فرة كان يمر في جبل اللكام في جوف  
الليل ، فسمع رجلاً يقول في دعائه « يا سيدي وأملي ، ومؤملي ، ومن به تم عملي أعوذ بك من قلب  
لا يشاق إليك ، وأعوذ بك من دعاء لا يصل إليك ، وأعوذ بك من عين لا تبكي عليك » ، فأدرك  
أبوسليمان أنه إمام « عارف » من العارفين المستترين : فقال له : يا فتى إن للعارفين مقامات وللمشتاقين  
علامات : فسأله العارف : ما هي : فأجاب الداراني : كتمان المصيبات ، وصيانات الكرامات :  
وطلب العارف منه العظة . فقال الداراني : اذهب ولا ترد غيره ، ولا ترد خيره ، ولا تبخل بشيئة  
عنه . . . اذهب فلا ترد الدنيا ، واتخذ الفقر غني ، والبلاء من الله شفاء ، والتوكل معاشاً ،  
والجوع حرفة ، واتخذ الله لكل شدة عدة . . . « فصعق الشاب ، صعقة ، فتركه أبوسليمان ومضى .  
ولكن نرى مواقف أخرى ، يبدو فيها أبوسليمان الداراني في مقام أدنى من مقامات هؤلاء العباد .  
ففي طريقه إلى الحج أيضاً ، وكان معه تلميذه ابن أبي الخوارى . . . قابل رجلاً عليه طمران رثان ،  
وكان الشيخ وتلميذه قد تدرعا بالفراء من شدة البرد ، بينما كان الرجل يرشح عرقاً ، فعطف عليه  
أبوسليمان الداراني ، وسأله « ألا ندرتك ببعض ما معنا . فقال الرجل : ياداراني . الحر والبرد حلقان لله  
تعالى : إن أمرهما أن يغشيانى أصاباني ، وإن أمرهما أن يتركانى تركانى ، ياداراني تصف الزهد ،  
وتحاف من البرد ، وأنا شيخ لى في هذه التربة منذ ثلاثين سنة ، ما انتفضت ولا ارتعدت ، بلبسنى في  
البرد فيحاً من محبته ، ولبسنى في الصيف مذاق برد محبته » . . . ثم مضى وهو يقول « ياداراني تبكى  
ونصيح ، ونستريح إلى الترويح . . . » فكان أبوسليمان الداراني يقول : لم يعرفنى غيره . . . (٣)  
وبعد : فقد كانت البوادي والبرارى مجالاً لمقام هؤلاء الزهاد ، وقد كان الزهاد يرون فيهم الأبدال  
مستندين على حديث منسوب للنبي ﷺ ، شك فيه علماء السنة ، ومستندين أيضاً على حديث « رب  
أشعث أغبر . . . » أو هو حديث صحيح كان الزهاد يحاولون قدر استطاعتهم مقابلة هؤلاء الزهاد من

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر : ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣٠٦ ، ٣٤٣ .

ساكنى البرارى ، وهم يتأون عن الناس ويحاولون الاختفاء بداريمهم ويعيشون مع أغنامهم ، يرعون بها الصحراء .

### ٥ - عباد جبل لبنان :

ولكن كما قلت كانت هناك مدرسة تتكون - على جبال لبنان ، وعلى الثغور العليا ، أى عواصم الحدود بين البلاد العربية وبين الدولة الرومية ، وعلى الرباطات فى أعلى البحر . ولا بد أن الجبل والبحر والحدود المضطربة غير الآمنة قد استهوت عدداً غير قليل من هؤلاء العباد . . . . .

وتبدأ مدرسة لبنان عند أغلب مؤلفى الطبقات من الأقدمين بالإمام أبى عمرو الأوزاعى ( المتوفى عام ١٥١ هـ ) وقد كان الأوزاعى فقيهاً بمعنى الكلمة ، وكان له مذهب يضارع - المذاهب الأربعة - ولكن لم يكتب لمذهبه الفقهى البقاء ، وقد أقيمت محاولات متعددة لعرض هذا المذهب الفقهى وتبين أصوله ، وكتبت مقالات متعددة فى تأثير القانون الرومانى فى فقهه أو عدم تأثيره . وقد عمل الأوزاعى للأمويين وأخلص لهم ، وكان هو الذى أفتى بقتل غيلان الدمشقى ، فى مذبة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، ثم حين أتى العباسيون - تأى عنهم - ونزى أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى الثانى يعاتبه أنه أبطأ عنهم <sup>(١)</sup> ، أى أنه لم يتصل بهم كما اتصل بالأمويين من قبل . وقد كان للأوزاعى صلوات بسفيان الثورى <sup>(٢)</sup> . ونلاحظ أن كليهما فقيه ، وأن الثورى انتهى فعلاً إلى التزهيد ، بل كان يتردد على رابعة العدوية وعلى طائفة الروحانيين فى البصرة ، ثم إنه قابل شيبان الراعى وأبى حبيب البدوى ، وكانت له بها صلوات ، فهل حدث أيضاً هذا للأوزاعى . لنتحدثنا النصوص التى بين أيدينا عن شيء من هذا .

كان الأوزاعى - كفقيه بل رأس مدرسة فى الفقه ورعاً ، ورع الفقهاء وكان واعظاً ، وعظ الفقهاء ، ونراه فى موعظته لأبى جعفر المنصور يتخذ لا طريق الفقهاء وحدهم ، بل أيضاً طريق المحدثين : فيقيم موعظته على أحاديث مسندة .

وكان الأوزاعى ، يمثل وجهة نظر أهل السنة فى الشام ، مع موالة لوجهة النظر الأموية ولذلك كان يعلن : خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسان ، لزوم الجماعة ، وإتباع السنة ، وعمارة المسجد وتلاوة القرآن ، والجهاد فى سبيل الله <sup>(٣)</sup> . . . . . والسنة عنده هى كل شيء « اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكف عما كفوا عنه ، واسلك سبيل

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٦ ص ٣١٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٤٢ .

سلفك الصالح . فإنه يسعك ما وسعهم ، ولا يستقيم الإيمان إلا بالقول ولا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بالنية موافقة السنة « (١) . . . والنص طويل وهام في مجال الفرق والكلام . ولعل هذا ما جعله يقف موقفاً عنيفاً تجاه غيلان حين نادى بالحرية الإنسانية .  
ولذلك أفضل أن أتجاوز عن الأوزاعي ، ونحن بصدد التكلم عن الحياة الروحية في الإسلام ، نتجاوز عن بقية الأئمة العطاء الورعين من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل . كان هؤلاء عملهم العظيم في ميدان الفقه ولم تكن الحياة الروحية من عبادة وزهد - بالمعنى الفني - من نطاق أعمالهم .

ولكن جبل لبنان كان يجذب إليه العباد ، يعيشون على قمه وفي كهوفه صيفاً وشتاء ، وكان الزهاد الكبار ، ثم الصوفية من بعدهم يحاولون مقابلة هؤلاء العباد والأخذ عنهم . . . وسرى في حياة ذي النون والسري السقطي وغيرهما من الصوفية الكثير من هؤلاء العباد المجهول الأسماء ، غير أن التاريخ ترك لنا أسماء البعض منهم .

ومن هؤلاء على الجرجاني . ويعتبره ابن الجوزي من أساتذة بشر بن الحارث المشهور بالحافي ، ومن كبار صوفية بغداد . وقد لقي بشر الحافي على عين ماء في جبل لبنان ، فآراى الجرجاني بشراً قال : بذنب منى لقيت اليوم إنسيا . ثم مضى فعدا بشر الحافي خلفه وقال له : أوصنى . فالتفت إليه وقال : أمتوص أنت ! عاتق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعاد الهوى ، وعاف الشهوات . واجعل بيتك من الحدك ، يوم تنقل إليه ، على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل (٢) .

ومن الذين عرفوا أيضاً من عقلاء المجانين بجبل لبنان « شيبان المصاب » وكان يتغنى بالحبة ، وقد قابله ذو النون المصرى على جبل لبنان وأخذ يعلم ذا النون عن هؤلاء الذين أنسهم الله بقربه . وأن من وصل منهم إلى هذا أعطاه الله أربع خصال : عزاً من غير عشيرة ، وعلماً من غير طلب ، وغنى من غير مال ، وإنساً من غير جماعة . . . ثم غشى عليه ، فلما أفاق . . . قال :

إن ذكر الحبيب هيج شوقى  
ثم حب الحبيب أذهب عقلى

ويشرح حاله فيقول « وقد استوحشت من ملاقات المخلوقين وقد أنست بذكر رب العالمين » . ثم يشرح لذى النون المحبة « أحب مولاك ، ولا ترد بحبه بدلاً ، فالحيون لله تعالى هم تيجان العباد وعلم الزهاد ، وهم أصفياء الله وأحباؤه (٣) .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١١١ ، ١١٢ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٣١٧ .

(١) نفس المصدر : ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢١٤ .

ثم يذكر لنا محمد بن المبارك الزاهد المشهور اسم عابد آخر كان يعيش في جبل لبنان ، واسمه «عباس المجنون» . وقد ذهب إليه محمد بن المبارك ويصفه فيقول «إذا برجل عليه جبة صوف ، مفتحة الأكمام ، عليها مكتوب - لا تباع ولا تشتري - قد انزرت بمثرت الخشوع ، واتسع برداء القنوع ، ونعمم بعمامة التوكل » ولما رأى محمد بن المبارك اختفى وراء شجرة . وناشده ابن المبارك بالله أن يظهر . فأقبل عليه . فقال له : « إنكم معاشر العباد ، تصبرون على الوحدة ، وتقاسون في هذه القفار الوحشية » فضحك ، ووضع كفه على رأسه وأخذ ينشد :

يا حبيب القلب من لى سواكا ارحم اليوم مذنباً قد أتاك  
أنت سؤلى وبغيتى وسرورى قد أبى القلب أن يحب سواكا  
يا منأى وسيدى واعتمادى طال شوقى - متى يكون لقاكا  
ليس سؤلى من الجنان نعم غير أنى أريدها لأراكا

ثم غاب عنه ، وانتظره ابن المبارك عاماً كاملاً ، فلم يظهر . ويبدو أن أبا سليمان الداراني كان على صلة به أيضاً . إن ابن المبارك يقص لنا أنه لقي غلام أبى سليمان الداراني فسأله عن العباس ووصفه له . فقال : واشوقاه إلى نظرة أخرى منه . . . ذلك عباس المجنون ، يأكل في شهر أكلتين من ثمار الشجر ، أو نبات الأرض . يتعبد منذ ستين عاماً<sup>(١)</sup> .

ولعل عباساً هذا يمثل لنا عباد جبل لبنان أكبر تمثيل ، كانوا هناك يلتحفون بالجبال ، ويقتاتون بفواكه الجبل أو بنحصرواتها ويتأون عن الناس . وكان يصطلمون بالحب الإلهي أو بالشوق إلى لقاء الله . وكانوا ينظرون إلى النعيم الأخرى كأنه معبر فقط لرؤية الله . وليس لنا ما يؤكد العلة في خروجهم إلى التعبد في جبال لبنان ، وجبال سوريا ، وجبال اللكام ، هل كان هذا نتيجة لذنوب ، أعقبتها توبة ، أم هي نوازع داخلية ، أصابتهم كما أصابت المتعبدين في مختلف بقاع العالم الإسلامى . ثم ليس لدينا أيضاً المصادر الكافية التي تصور لنا حياتهم تصويراً كاملاً . ولكن تؤكد ما بين يدينا من مصادر ومعلومات أنهم لم يحبوا حياة جمعية : كما أنهم لم يتأثروا بالرهبة المسيحية ، وقد أخطأ المستشرقون الذين حاولوا رسم حياتهم وتصويرها على نمط هؤلاء الرهبان ، فليست هناك صلوات تذكر ، وإن كانت وجدت ، لأفاض فيها المؤرخون القدامى من المسلمين والمسيحيين .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ١٤٥ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

## الفصل الثالث

### مدرسة الثغور

أفرد ابن الجوزى في براعة نادرة مكاناً خاصاً في كتابه صفوة الصفوة للمصطفىين من أهل الثغور والعواصم . وكانت الثغور والعواصم تعنى تلك المدن القائمة على الحدود بين « دار الإسلام » و « دار العدو » أو الثغور الواقعة على البحر ويرابط فيها « مرابطة » من المجاهدين لصد هجمات العدو . وكانت الإسكندرية مكاناً للمرابطة لمدة طويلة من الزمن ، ثم استقرت أمورها . ولذلك سنخرجها من بحثنا هذا . ولكن أهم الثغور والعواصم التي تسترعى أنظار الباحث كانت ثغور الإقليم المورى ، سواء على شواطئ البحر ، أم في شهاها حيث كانت « المرابطة » أمام العدو الرومانى البيزنطى .

وقد استمر العباد من قبل ثم الزهاد من بعدهم ، بل الصوفية أنفسهم سنة « المرابطة » فكانوا يذهبون إلى هذه « الربط » لمجاهدة العدو ، وقد نشأت في المغرب الأقصى فيما بعد - دولة كبرى - اتخذت « المرابطة » اسما لها ورسماً مع تصوف واضح ، وكان للمرابطين في شمال أفريقيا وفي الأندلس دور هام في تاريخ الإسلام في تلك البلاد .

والأحظ أولاً أن عباد الثغور والعواصم كانوا إما فقهاء وإما محدثين - في بادئ أمرهم - ثم دفعتم « دفعة » من الزهد أو التصوف نحو المرابطة . ثم أرى ثانياً أيضاً أن الكثيرين منهم ، لم يكونوا أصلاً من أهل البلاد التي أقيمت فيها الثغور أو العواصم ، بل أتوا إليها من بلادهم الأصلية - كالبصرة أو الكوفة أو خراسان ، حقاً إن الزاهد الكبير يوسف بن أسباط كان فعلاً من أهل الثغور ، ولكن العدد الأكبر منهم كانوا « مهاجرين » أتوا إلى الثغور إما للمشاركة في الجهاد ، وللفوز بالاستشهاد ، وإما لتقوية عزائم المجاهدين وأخيراً - إن معنى الرباط ، والثغور تغير بمضى الأزمان فأصبح « الرباط » مجرد مأوى لمشايخ الصوفية وأتباعهم ، اللهم في حالات معينة ، يقيمون فيه عباداتهم وشعائهم ، وانتهى معنى الجهاد والاستشهاد فيه .

وقد لاحظت - أن هؤلاء العباد كانوا فقهاء وعلماء ومحدثين . ويتحقق هذا في أحد الأوائل من تلك الطائفة ، وهو أبو إسحاق الفزاري ( المتوفى عام ١٨٨ هـ ) ، بحيث يقول عنه صاحب الحلية « كان لأهل الأثر والسنة إماماً <sup>(١)</sup> » ويقول عنه ابن الجوزى « صاحب سنة وغزو <sup>(٢)</sup> » . وقد دعته

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٥٣ .

(٢) وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٧٣٣ .

هذه السنة أنه كان يأخذ المال من السلطان والإخوان - أي يقبل الهدايا من الخليفة ومن إخوانه من المسلمين « فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون » أي ينفقه على العباد والزهاد ممن لا يتركون أماكن عبادتهم « والذي يأخذه من السلطان ، كان يخرج به إلى مستحقه من أهل طرطوس<sup>(١)</sup> » أي ينفقه في مستحقى الصدقات من أهل الثغر الذى عاش فيه وهو طرطوس ولكن قبوله هدايا الخلفاء لا يعنى أبداً أنه عاش في رحابهم . لقد طلب منه هارون الرشيد أن يبتى لديه : وقال له : أيها الشيخ : إنك في موضع القرب . فرفض وقال : إن ذلك لا يعنى عنى يوم القيامة من الله شيئاً<sup>(٢)</sup> . « ولذلك يصفه صاحب الحلية أيضاً بأنه : « تارك القصور والجوارى ، ونازل الثغور والبرارى<sup>(٣)</sup> » « ولقد استقام - بعد طرطوس والمصيصة ، ووسم باسم الشامى » كان الأوزاعى والفزارى إمامين في السنة ، فإذا رأيت الشامى يذكر الأوزاعى والفزارى ، فاطمئن إليه ، كان هؤلاء أئمة في السنة<sup>(٤)</sup> » ولذلك أخذ عن الفزارى الأئمة الكبار من المحدثين والصوفية ، كسفبان الثورى والأوزاعى ومحمد بن يوسف الأصفهاني بل كان الأخير يذكر عنه أنه الصادق المصدوق . وكان العابد الخراسانى الكبير « الفضيل بن عياض » بتشوق لرؤيته ويقول « لربما اشتقت إلى المصيصة ، ما فى فضل الرباط ، إلا أرى أبا إسحق الفزارى » ولقد كان يربط فى المصيصة ومعه فى الرباط إبراهيم بن أدهم الصوفى المشهور ، ولقد ألفت لنا المصادر بعض العبارات القليلة عنه فى الورع « إن من الناس من يحب الثناء عليه ، وما يساوى عند الله جناح بعوضة » ، والقول الآخر « من قال الحمد لله على كل حال ، فإن كانت نعمة ، كان لها كفاء وإن كانت مصيبة ، كان لها عزاء<sup>(٥)</sup> » .

أما الشخصيات التى يتضح فيها الهجرة من أماكن داخلية إلى الثغور فكثيرة منهم عيسى بن يوسف ابن إسحق السيعى الهمداني ( المتوفى عام ١٨٧ هـ ) « كان من الكوفة ، فتحول إلى الثغر ، فنزل الحدث » وكان من أهل « الورع » ولا يقبل مالا لا من الخليفة ولا من غيره عن روايته للحديث ، وقد ذكره ابن حنبل وأثنى على ورعه . وكان ابن حنبل يجب هذا النوع من المحدثين والفقهاء ، الذى يختلط نوع من الورع والزهد بفقههم وتحديثهم<sup>(٦)</sup> . ومن هذه الشخصيات على بن بكار ( المتوفى عام ١٩٩ ) . وقد كان على بن بكار فقيهاً بصرياً ، ولكنه سكن المصيصة مرابطاً ، صحبه إبراهيم بن أدهم

(١) القشيري : الرسالة . . ج ٢ ص ٥٤٣ ، ٥٤٤ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٦) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٤٠ .

وأبا إسحق الفزارى ومحمد بن الحسين . وقد ذكره صاحب الحلية ، فقال : « المرابط الصبار ، المجاهد الكرار <sup>(١)</sup> » . ويتضح من هذا صدق ملاحظتى الأولى والثانية : وهى أن رجال الثغور كانوا فقهاء أولاً ، ولم يكونوا فى الأغلب من أهل أقاليم الثغور . كما نلاحظ أنه كان هناك روح عامة لدى زهاد العالم الإسلامى تدفعهم نحو المرابطة ، وأن إبراهيم بن أدهم ، وكما سنرى بعد حين نبحت فى حياته ، وقد صاغها المستشرقون صياغة فيها غلو وعدم صدق - على نسق حياة بوذا ، كانت حياته إسلامية بحتة ، وأنه رابط كما رابط غيره من الزهاد ، وأنه اتبع السنة ، كما اتبعها غيره من عباد المسلمين كان على بن بكار إذن فقيهاً وصاحب سنة ، ولم يمنعه فقعه وسنته من أن يصحب إبراهيم بن أدهم . ولو شك أبو إسحاق الفزارى - وكان أيضاً فقيهاً ، وعلى بن بكار فى سنة إبراهيم بن أدهم ، ولولتين لهما أنه كان يعيش فى ضوء تعاليم بوذا ، لما اصطحباها ، ولما رابطا معه .

كان على بن بكار - كما قلت - بصرياً ، وكان فقيهاً . ثم ما لبث أن ترك البصرة ، كما ترك الفقه ، وخرج مع إبراهيم بن أدهم مرابطاً فى المصيصة ، وكان يبكى دائماً ، وتلك سنة أهل البصرة من العباد والزهاد . . . حتى عمى ، وكان أثر الدموع على خديه <sup>(٢)</sup> . وكان بنأى عن فراشه ، ويقضى الليل كله فى التعبد والتهجد .

وفى المصيصة ، عاش فى رباطها مع بقية أصحاب إبراهيم بن أدهم وبخاصة أبى إسحاق الفزارى ، وكانا يكتسبان عيشهما بالاحتطاب ، ثم يشاركان فى المغازى ، قد ذكرت المصادر بطولة على بن بكار فى القتال <sup>(٣)</sup> .

وقد ترك لنا على بن بكار لمحات جميلة فى حياة المسلمين الروحية : إننا نراه يضع قاعدته فى الزهد فى صورة نصيحة لأحد تلامذته : اتق الله والزم بيتك وامسك لسانك واترك مخالطة الناس ، تنزل عليك الحكمة من فوقك « فهو إذن يؤمن بعلم لدنى ، ينتزل على الزاهد من أعلى ، حين يسلك طريق التصفية : التقوى ، والحلوة ، والصمت <sup>(٤)</sup> والانفراد . ويكره التزين والتصنع - حتى للعباد الكبار . فقد جاءه رسول من حديفة المرعشى الزاهد الكبير يقرأه السلام . فيرد عليه على بن بكار قائلاً : « عليكم وعليه السلام ، لأنى لأعرفه يأكل الحلال منذ ثلاثين سنة » . ثم يفكر ملياً ويقول « لأن ألقى الشيطان ، أحب إلى من أن ألقاه » ، وعجب الحاضرون وسألوه فى هذا . فأجاب : « أخاف أن

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣١٧ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٤١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٤ ص ٢٤٢ .

(٤) وله فى الصمت كلمات أوردتها القشيري فى الرسالة ج ١ ص ٣٠٣ .

أتصنع له ، فأترزين لغير الله ، فأسقط من عين الله (١) . وهذا مقام في التوحيد غريب ، يعلمه الزهاد والصفوية ، وهو متصل بأعماق نفوسهم . كان الكثيرون منهم يتأون عن مقابلة بعضهم البعض ، خوفاً من أن يتصنعوا ، ويداهنوا بعضهم البعض ، وخوفاً أيضاً من أن يحسد الواحد الآخر ، إذا ما أحسا بأنها يتنافسان في العبادة ، وأن أحدهما علا على الآخر في عبادته . كانت العبادة ، والتزهد ، والخروج عن دنيا الناس ، لله وحده ، فلا ضير إن زاد الواحد منهم وقصر الآخر .

وكان محمد بن الحسين ( المتوفى عام ١٩١ هـ ) أيضاً من فقهاء البصرة ، وعبادها ونحوه أيضاً مرابطاً في المصيصة ، صحبه إبراهيم بن أدهم ، وعلى بن بكار وأبي إسحاق الفزاري - وهو يمثل أيضاً الهجرة من الداخل إلى الثغور ، كما يمثل أيضاً فكرة الفقهاء والزهاد . وكان محمد بن الحسين يعيش على عطاء الخلفاء ، ثم ينفق ما يأخذ على الفقراء . وقد ذكر القشيري « كان يأخذ من السلطان ، ولا يأخذ من الإخوان . وكان يقول : السلطان لا يمن والإخوان يمنون (٢) » . وكان أهم ما يميز محمد بن الحسين ، هو الصمت ومحاولة السيطرة على كلامه ، بحيث يقول : « ماتكلمت بكلمة أريد أن أعتذر منها منذ خمسين سنة » . ويدعو إلى المداراة ، حتى مداراة جاريته الحبشية . وإذا كان يدعو إلى المداراة ، فإنه يدعو إلى الخمول وعدم الشهرة فإذا ذكروا أخلاق بعض الصالحين أمامه ، ويبدو أن أصحاب مجلسه أدرجوه في هؤلاء . فقال :

لا تعرضن بذكرنا « في ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

وأخيراً - لقد كان يرى محمد أن الشيطان ليعرض للعباد في كل ما ندبهم الله إليه ، ولا يبالي بأيهما ظفر ، إما غلواً فيه ، وإما تقصيراً عنه . كان محمد بن الحسين إذن يدعو إلى القصد والاعتدال . على أن أهم ما يميز محمد بن الحسين في تاريخ الحياة الروحية عند المسلمين أنه كان من رجال إبراهيم بن أدهم وفي صحبته ، وأنه ترك البصرة ، ترك دنياه كلها ليكون في معيته .

ولكن ما يلبث أن يظهر في الثغور زاهد من أكبر زهاد المسلمين ، ويعيش أيضاً في رباط إبراهيم بن أدهم هو حذيفة بن قتادة المرعشي أو حذيفة المرتعش ( المتوفى عام ٢٠٧ هـ ) - وقد صحب حذيفة أول أمره سفيان الثوري (٣) ، ويبدو أنه خرج معه في أسفاره مراراً ، « ولكنه شغل بالعبادة عن الرواية » ثم لزم إبراهيم بن أدهم ، بحيث كان يسأل بعد وفاة إبراهيم عن أحواله . ورحل معه مراراً إلى الحج ، وإلى الكوفة ، ثم استقر في رباط المصيصة (٤) . غير أن السرى السقطي الصوفي البغدادي

(١) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٣١٧ - ٣١٩ ، وابن الجوزي صفة ج ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

(٢) القشيري : الرسالة ج ٢ ص ٥٤٤ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٤٥ .

(٤) النهاية : جامع كرامات الأولياء ج ١ ص ٣٨٦ / ٣٨٧ .

المشهور يضعه في أول الورعين في زمانه فيقول « كان أهل الورع في أوقاتهم أربعة : حذيفة المرتعش ويوسف بن أسباط وإبراهيم بن أدهم وسليمان الخواص ، فنظروا في الورع ، فلما ضاقت عليهم الأمور : فرزوا إلى التقلل » (١) أى فرزوا إلى أخذ القليل من الدنيا . وكان الورع رائد عدد كبير من العباد . وذكر حذيفة المرعشى دائماً في قائمة هؤلاء « من أهل العلم الذين ينظرون في الحلال - النظر الشديد ، لا يدخلون بطونهم إلا ما يعرفون من الحلال ، وإلا استقوا التراب » (٢) وهذا يدل على ما كان للرجل من مكان عظيم في تاريخ الزهد في الإسلام وكان حذيفة يتكلم في أعاق النفس الإنسانية . ويصنف القلوب فالقلوب قلبان : قلب ملح في مسألة ، وقلب يتوقع ساعته . وأن عمل القلب على خوف سوء ، وكذلك عملها على رجاء . كلاهما سواء لديه . إنما أراد فقط قلباً خالياً من الاثنين من الخوف ومن الرجاء ، ومن الهوى « لا تهوى شيئاً » ومن القسوة . فإذا فعل هذا ، أصابته الحكمة ، وإنك ربما أصبت الحكمة فوق مزبلة . ولا بد من طاعة الله في السر ، « فأطاع الله في السر ، أصلح له قلبه شاء أو أبى » (٣) ودعا إلى الوحدة ، وهى عنده أعظم من القيام بالفريضة جماعة ، لو أمكن الاحتياط لها . إن العالم يعرف ما يأتي عنها . ومن أثر مراد الله على هواه أفاض عليه كل شيء ، وسخر له الماء والهواء (٤) . وكذلك لا بد للقلب من الخشوع والخشوع هو قيام القلب بين يدي الحق - بهم مجموع (٥) . وأول ما يفقده الإنسان من دينه هو الخشوع ويطلق حذيفة بعض لمحات في التصوف . فيعرف الإخلاص بأنه هو استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن (٦) .

واخيراً - إنه يدعو إلى الزهد الكامل في الدنيا . . . ويذكر أنه منذ أربعين سنة لم يملك إلا قيصاً واحداً (٧) . ولقد كان حذيفة . معلماً كبيراً وقد سأل أحمد بن يوسف بن أسباط أباه يوسف عن علم حذيفة . فأجاب يوسف « كان معه علم كبير - حسنة الله » والعلم المقصود هنا . . . هو علم الزهاد والصوفية أو علم القلوب . فلم يكن حذيفة صاحب حديث بل شغل بالعبادة عن الرواية ولعل أحمد ابن يوسف بن أسباط كان يسأل أبيه عن علم حذيفة بالفقه والحديث ، وأجاب يوسف بأنه كان لديه كثر العلوم ، علم القلوب ، وهو الذى يحسنه الله وبلقيه في نفوس العباد . وكما قلنا كان حذيفة معلماً

(١) القشيري : الرسالة - ج ١ ص ٢٨٤ / ٢٨٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٧١ .

(٣) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٥) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٣٣٩ .

(٦) نفس المصدر : ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٧) أبو طالب المكي : توت القلوب ج ٢ ص ٣٩ .

كبيراً أثر في معاصره كيوسف بن أسباط وغيره ، كما أثروا هم فيه ثم انتهى تأثيرهم إلى تلميذ كبير لهم هو عبد الله بن خبيق . بل كان هؤلاء الثلاثة ، يوسف بن أسباط وحذيفة بن قتادة ، ثم تلميذهما عبد الله بن خبيق يمثلون مدرسة كبيرة مترابطة ، ولعل هذا يدعونا إلى بحث في مدرسة من مدارس الثغور . وهي أنطاكية .

## الفصل الرابع

### مدرسة أنطاكية

#### بدايات التأثير اليوناني الفلسفي في المسلمين

كانت أنطاكية مدينة رومانية قديمة وقد ازدهر فيها مركز للثقافة اليونانية العلمية والفلسفية وقد عانت أنطاكية في القرون السابقة أحداثاً كثيرة ، فقد غزاها الفرس ، وكادوا أن يجربوها تخريباً كاملاً ، ثم خربتها زلازل متعددة ، وفتحها أبو عبيدة الجراح عام «١٧ هـ» وسكنها العرب ، واعتبروها «قصة العواصم من الثغور الشامية» وكانت تتميز بطيب هوائها وعذوبة مائها وكثرة فواكهها ، وسعة الحياة فيها . «وكل شيء عند العرب من قبل الشام ، فهو أنطاكي»<sup>(١)</sup> وهذا يبين تماماً أهمية هذه المدينة وإقبال العرب على السكنى فيها .

ومن المؤكد أنه بقيت عناصرها الرومانية وآثار سكانها في المدينة ، كما كان النصارى يعيشون بجانب المسلمين فيها ، وفيها حواليها من قرى . كما كانت الكنائس والبيع تنتشر في أرجائها .

وكانت حياة «الإسكندرية» في العهد الأول الإسلامي غير مستقرة ، إذ حاول الروم مراراً الاستيلاء على المدينة ، وكان أن تداولها أيدي البيزنطيين والمسلمين مراراً ثم استقرت بين أيدي المسلمين نهائياً . ورأى أصحاب المجلس التعليم الفلسفي والطبي من اليونانيين في الإسكندرية أن حياتهم العلمية في ثغر الإسكندرية مهددة . إذ أنقطع الاتصال العلمي بينهم وبين القسطنطينية عن طريق البحر ولذلك قرروا الانتقال من الإسكندرية - في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وقد اختاروا الانتقال إلى أنطاكية ، حقاً كانت حياة أنطاكية غير مستقرة أيضاً ، فقد كان البيزنطيون يحاولون الانقضاض عليها ثانية ولكن كانت المدينة - في العصر الأموي - في أيدي حكام أقوياء استطاعوا المحافظة عليها . ورأى أصحاب المجلس التعليم الفلسفي الإسكندري أنهم يستطيعون في أنطاكية الاتصال ببيزنطة خلال طريق القوافل ، وأن يتبادلوا الكتب ، وأن يكونوا على صلة ما بموطن العلم اليوناني حينئذ . ولم يكن غاية أصحاب المجلس التعليم الطبي الإسكندري - الهجرة إلى بيزنطة ، ذلك لأن المدرسة بقيت في أنطاكية . منذ انتقالها في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عهد المتوكل (٢٣٢ هـ . إلى ٢٤٧ هـ) . أي أن المدرسة بقيت في أنطاكية حوالي مائة وعشرين أو مائة وأربعين عاماً تقريباً ثم

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ .

انتقلت إلى حران . وكان عمل المدرسة الأساسى فى أنطاكية هو البحث عن المخطوطات واستردادها فى أوقات السلم بين الدولة العربية والإمبراطورية البيزنطية ، علاوة على أنها كانت تعنى بالترجمة من اليونانية إلى السوربانية (١) .

كانت أنطاكية إذن موطناً علمياً خطيراً ، فى العهد الإسلامى ، كما كان لموقعها الجغرافى من حدود الدولتين ، أهمية حرية كبيرة ، أو بمعنى أدق كانت ثغراً بين ثغور الجهاد ، ورباطاً للغزو ، ومن هنا أقبل الزهاد عليها مجاهدين ... ، كما نشأ فى أراضيها وفى قرأها زهاد شاميون .

### ١ - أحمد بن عاصم الأنطاكى فيلسوف التصوف الأول :

وإذا كان الغموض يحيط بتاريخ أنطاكية العلمى فى تلك الفترة ، فإنه أيضاً يحيط بتاريخ أول رجال الزهد فيها ، غير أننا خلال النقد الداخلى للنصوص - سنحاول أن نلقى نظرة تركيبية على هذه الشخصية العربية التى ظهرت فى أنطاكية ، وسرى إلى أى حد انعكست ثقافة أنطاكية الفلسفية فيها ... وهذا الزاهد الأول أو رجل الروح الأول من رجال أنطاكية هو أحمد بن عاصم الأنطاكى (٢) . مع اختلاف فى كنيته : يقول السلمى « كنيته أبو على ويقال أبو عبد الله وهو الأصح » ثم يصفه بأنه من أقران بشر بن الحارث والسرى (السقطى) والحارث المحاسبى ثم يقول فى دقة « إنه رأى الفضيل بن عياض (٣) » « أى أنه أخذ عنه ، ويتأيد هذا فعلاً أنه ينقل - فيما أورده صاحب الحلية - عن الفضيل بن عياض بعض أقواله (٤) . ويبدو أيضاً أنه كان معاصراً لأبى سليمان الدارانى ، فقد كان الدارانى يسميه جاسوس القلوب (٥) . كما كان أكبر رواة ومن أخذوا عنه تلميذ أبى سليمان الدارانى الكبير - أى الزاهد أحمد بن أبى الحوارى . والدلائل ناطقة على أنه قابله واستمع إليه (٦) . كما أخذ عنه أيضاً عبد العزيز بن محمد بن المختار الدمشقى (ويقال له أيضاً الأنطاكى) ، وابنه أحمد بن عبد العزيز الأنطاكى ومحمد بن يوسف ، وأحمد بن محمد بن موسى الأنطاكى . كما نقل لنا قصيدته : عبد الله بن القاسم القرشى . ويذكر هذا القرشى أن أحمد بن عاصم أنشده هذه القصيدة .

(١) الدكتور بدوى : التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ص ٦٣ - ٦٧ .

(٢) الكلاباذى : التعرف ... ج ١٢ .

(٣) السلمى : طبقات ص ١٣٧ ، الشعرائى : طبقات ج ١ ص ٧١ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٥) الشعرائى : طبقات ج ١ ، والقشبرى : الرسالة ج ١ ص ١٠٠ .

(٦) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٠ - ٢٩٧ .

كما روى عنه أيضاً على بن عبد الرحمن الزاهد « وكذلك ابن مسروق الجربري<sup>(١)</sup> . أما ابن الجوزي فيقول إنه « من متقدمي مشايخ الثغور<sup>(٢)</sup> » إن من الأرجح إذن أن أحمد بن عاصم كان من طبقة أبي سليمان الداراني وكان معاصراً له .

أما عن أساتذته ، فلا نعرف - فيما بين أيدينا من مصادر أنه تتلمذ على أحد من المشايخ من قبله اللهم إلا ذكره مرة واحدة للفضيل بن عياض - كما قلنا - كما أنه ليس لدينا أيضاً معلومات عن رحلاته وأسفاره ، اللهم إلا إذا كان قد قام بالحج وأنه قابل الفضيل بن عياض هناك في مكة ، وسياق حديث الفضيل بن عياض الذي ينقله أحمد بن عاصم يثبت هذا ، إذ كان كلام الفضيل بن عياض موجهاً لابنه علي . ونحن نعلم أن الفضيل بن عياض قد استقر هو وابنه وأسرته في مكة . ولذلك أكاد أجزم بأن أحمد بن عاصم الأنطاكي كان من رجال القرن الثاني وأنه توفي في أواخره . وإني أشك كل الشك فيما رواه السلمي - ونقله إلينا القشيري من أنه أخذ عن سهل بن عبد الله<sup>(٣)</sup> .

وهنا تقابلنا مشكلة ثقافته . إن ابن الجوزي يذكر أننا « لا نعلم له مستنداً<sup>(٤)</sup> » . ويعني هذا أنه لم يشتغل بالرواية ولكنه لا يعني أنه جهل الحديث ، حقاً إنه لا يذكر عنه أنه درس على إمام من أئمة الحديث ، كما لا يذكر أنه تلقى علم الزهد أو العبادة أو القلوب ، عن شيخ من الشيوخ . ولكنه يذكر في قصيدته الوحيدة التي بقيت لنا أن لديه علماً إلهامياً - وهو علم القلوب - أو علم التصوف - كما سيعرف فيما بعد . وعلماً سماعياً : وهو الفقه والحديث . يقول :

هلم إليّ الآن إن كنت طالباً سبيل هدى أو كنت للحق باغياً

فعندي من الأنباء علم مجرب فنه بإلهام ومنه سماعياً<sup>(٥)</sup>

وهنا تساءل هل أثرت ثقافة أنطاكية الفلسفية في ثقافته ودخلت فيها . إن علينا أن نرجع إلى ما ترك من أقوال ، لتتضح ما فيها من آثار خارجية .

إن أول ما نلقاه عن تلك الآثار الخارجية أو بمعنى أدق معرفته بالتراث الفلسفي هو ما ذكره بنفسه « إني تبحت العلوم وجربت الأصول ، وأدمت الفكر وأهملت الاعتبار . وعنت بالأذكار وطالعت الحكمة ، ودارست الموعدة وتدبرت القول بالمعقول . وصرفت المعاني بالذهن<sup>(٦)</sup> » وهذا يدل

(١) السلمي : طبقات ص ١٣٧ % ١٣٨ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٣) القشيري : الرسالة : ج ١ ص ٢٧٨ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٥٣ .

(٥) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٩٦ .

(٦) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٩ .

دلالة واضحة على سعة ثقافة الرجل ، ودراسته «للحكمة» وتبحره في مختلف العلوم ، «أو بمعنى أدق لم يكن الرجل بمنأى عن الثقافة العامة المنتشرة في الشام عامة . وفي أنطاكية على وجه الخصوص . ثم نراه في قصيدته يذكر أن لديه «حكمة النفس . والعلم العقلي» و«علم تقادم عهده»<sup>(١)</sup> .

ولكن ليس هذا كل ما نراه في تراثه<sup>(٢)</sup> ، إننا نرى نوعاً من المصطلح الفلسفي يظهر فيه ، حقاً إن هذا المصطلح باهت ، ولكن لاشك أنه موجود . ومن الأدلة على هذا :

(١) يذكر كلمة «الجوهر» . فيقول : جوهرك ... جوهر الفضائح . كما يقول في قصيدته :  
ومن بعد ذا عندي من العلم جوهر يفيدك علماً إن وعيت كلاميا  
ونحن نعلم أن كلمة الجوهر دخلت إلى التراث الإسلامي الأول في المرحلة الثانية من الترجمة عرف الترجمة أولاً كلمة عين ترجمة لكلمة أوسيا اليونانية ، ثم أبدلت كلمة عين بكلمة جوهر في الترجمة التالية . وكلمة جوهر . . . كما نعلم فارسية الأصل .

(ب) يستخدم أحمد بن عاصم مصطلح الحكماء «إن الحكماء نظروا إلى الدنيا بعين القلا ، إذ صح عندهم أن شهوات الدنيا تفسد عليهم كلمتهم» وفي موضع آخر يذكر «جملة العلم والقرآن ودعاة الحكمة» وفي موضع ثالث يقول «من تأخى الحكمة شغل عما سواها»<sup>(٣)</sup> . وقد يقال : ما هو المقصود بالحكماء والحكمة . . . إن السياق واضح أنه لا يقصد بهم أبداً ، العباد السابقين من المسلمين ، بل نوعاً معيناً من الناس . ونحن نعلم كيف صور سقراط وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان وحكائهم في صورة قديسين وأصفياء أقرب إلى قديسي المسيحية وأصفياهم . وفي عبارته «من تأخى الحكمة شغل عما سواها» مسحة سقراطية أفلاطونية .

(ج) ويؤيد هذا عبارة لأحمد بن عاصم الأنطاكي هي «لا معرفة كمعرفة نفسك»<sup>(٤)</sup> . وهي تشبه قول سقراط المشهور «إعرف نفسك» وقد انتشر هذا القول ، ووضع أحياناً كحديث ، وأحياناً أخرى كأثر عن الإمام علي .

(د) ظهرت كلمة المعرفة عنده ، وأعطاهها معنى «التذوق» أو الغنوص «أشتهى أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين» الذين يستحبونه ، لا معرفة التصديق<sup>(٥)</sup> . «وسأعود إلى هذا النص فيما بعد . كما

(١) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٩٦ .

(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٩٠ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ .

(٤) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٩ .

(٥) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٢ .

أنه في نص آخر يكاد يكون في غمط فلسفي يقول «أن تخرج معرفة الله وإخلاص توجيده من صحة التركيب وحجة العقود ، وفضيلة الإلهام في الملكوت ودلالة العلم» (١) .

(هـ) يتكلم عن العقل فيقول «جعل للعقل شكلاً هو العلم ، والهوى والباطل شكلان مؤتلفان قرينان» (٢) . وهذا تعبير فلسفي واضح . كما أنه يضع تقسيماً منطقياً فيقول «حركات الخير والشر من الطاعات والمعاصي جعلها الله أضداداً» (٣) والتقسيم المنطقي تسيطر على أغلب كلامه ، مما يرجع اطلاعه على بعض ترجمات المنطق .

(و) يذكر الحواس الخمس فيقول «الحواس خمس وسادسها الملك ، وهو القلب » ولكنه ما يلبث أن يضع مصطلحاً منطقياً واضحاً فيقول : وإنما يوصل إلى فهم المعرفة أجناسها . ويرجع من كل هذه النصوص أن أحمد بن عاصم الأنطاكي كان على إمام بالفلسفة التي بدت بواكيرها في أنطاكية ، حين انتقل مجلس التعليم الطبي والفلسفي إليها : ولا شك أنه كان على صلوات ببعض رجالها ، كما كان عليه - وهو شيخ الثغر - أنطاكية - أن يحتلظ بالمسيحيين من أهل أنطاكية ، وأن يعرف الكثير منهم عن ثقافة الأوائل وعلومهم . وسنعرض لمذهبه طبقاً لما ترك لنا عنه من شذرات متفرقة أحياناً ، ومن فقرات متجمعة أحياناً .

### النفس الإنسانية :

شغل أحمد بن عاصم بالنفس الإنسانية : فالنفس الإنسانية هي موطن الشرور والأهواء . فلا بد من الاستعانة بالله على مخالفة أهوائها وبجاهدة « هذا العدو » . وكل نفس مسئولة : وهي مرتبهة أو محلثة « وفكاك الرهون بعد قضاء الديون ، فإذا أغلقت الرهون ، أكدت الديون ، وإذا أكدت الديون ، استوجبوا السجون » فالإنسان إذن حبيس لنفسه الشريرة إذا سيطرت على الإنسان سجن السجن النهائي ولا فكاك . ولذلك يتطلب أحمد بن عاصم من المرید أن يشتغل بالله مضطراً إليه - في رحاب الجبرية المطلق ، في محط الخوف من عقابه ، في محط الرجاء لثوابه . وأن يقطع الدنيا ، لا ديون ولا رهون ، محلثة خالصة من أدران البشرية ، قاطعاً لعقبة الكذب « بالخوف الحاجز وبصدق المناجاة للاضطراب يقلب موجه » وأن يأخذ الإنسان في المحاسبة . ونحن نتساءل هل أخذ فكرة المحاسبة عن المحاسبي . وقد قيل إنه من أقرانه ، إنه يحددها بأن يعقل الإنسان درجته ولا يزهو عند

(١) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٧ .

(٣) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٨٨ .

الخلايق بكثرة تقياته . إن جوهر الإنسان هو جوهر الفضائح وسياء سبب الأبرار . وفي المحاسبة أن نستحي من الله . . . وأن تستحي من قبولك من نفسك دعوى الصدق . إنها مفتضحة عندك ، وأنت تنكر ، لقد بان لك جوهرها من خالص ضميرها ، من خالص مكنونها الداخلى بإيثارها حجة الكذب على حجة الصدق . لا بد لك حينئذ من عداوتك لها ، وأن يكون حظك ونصيبك الكامل الحق ، هنا ينبغي في خلوتك مع الله أن تقر عليها بالكذب ، وأن تبكى بدمع سخين على ما ظهر منها ، وعليك أنت باستدراجها-فتكون هي من المستدرجين لأنك . ويؤيد هذا . . . بنص إسرائيلي عن عزيز . . . إله البرية : إني لأعد نضى مع الكذابين الظالمين ، وروحي مع أرواح الهلكى ، وبدنى مع أبدان المعذنين «إذن ماذا بقى للإنسان- يقول أحمد بن عاصم «إذا صارت المعاملة إلى القلوب ، استراحت الجوارح» .

والقلب . . . هو الملك ، الحاسة السادسة ؛ فإذا أحس كل شيء ، بهذا القلب الموجه ، صفا وكثر تيقظه ، وتسورت عليه طوارق الأحران ، وقلت فيه الغفلة ، وتملكه اليقين الذى يتفجر منه الخوف والشكر . ولكن من يستطيع هذا «إن مخرج الشكر من اليقين عزيز غير موجود»<sup>(١)</sup> ولكن لا بد من المحاولة : لكى تنتقل إلى صفاء القلب : أن تزوى عنك الدنيا ، وأن يمن عليك بالقنوع ، ويصرف عنك وجوه الناس ، ويمن عليك بالرضا . وهو فى هذا يتطلب أن يصل الإنسان إلى حالة السلب المطلق- ألا تمتحن بالدنيا بعد- أى لا تتعرض لها .

وهنا تتوالى الدرجات على قلب الإنسان : اليقين : وهو ما عظم فى عينك ما به قد أيقنت ، وصغر فى عينك ما دون ذلك<sup>(٢)</sup> . والخوف : وهو ما حجزك عن المعاصى وأطال منك الحزن على ما قد فات ، وأزمتك الفكر فى بقية حياتك . والرجاء وهو ما سهل عليك العمل لإدراك ما ترجو ، والحق : وهو إنصافك للناس من نفسك ، وقبولك الحق بمن هو أدنى منك . والصدق : وهو أن تقر لله بعيوب نفسك وأن تنفى عنك الكذب فى مواطن الصدق . والإخلاص وهو : ما ينشئ عنك الرياء والترزين والتصنع<sup>(٣)</sup> . والحياء : وهو أن تستحي أن تسأله ما تحت ، وتأتى ما يكره ، والشكر : وهو أن تعرف منه ما ستر عليك من مساوتك ، فلم يطلع أحد من المخلوقين عليك . والتوكل : هو الوثوق بفضائه وإحسان طلبته . والغنى : وهو ما ينشئ عنك الفقر وخوف الفقر . والفقر هو ما يتجمل به المرید ويرضى ، والصبر هو أن تقوى على خلاف هواك ، ولم يجد الجزع فيه مساعاً .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٣) السلى : طبقات ص ١٣٨ .

فينبغي على المرید أن يعانى كل هذه الدرجات ، وهى ما عرف فى تاريخ التصوف بعد بالمقامات ، لكى يصل إلى نصفية القلب . ولذلك كان ينادى بأن أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله هو ترك معاصيه الباطنة ، وإذا اجتنب الباطنة ، بطلت الظاهرة والباطنة معاً : وأضر المعاصى عنده ؛ ما لا يعلم أنها معصية ، وأضر من هذه ما يعلم أنها طاعة ، وهى لله معصية . ومع ذلك فإن للمعاصى نفعاً : وهى أن يطيل البكاء عليها إلى مفارقتها للدنيا . . . وفى موضع أخنى لشخصه - وهو صومعته وداخل بيته (١) . وهؤلاء أهل الطاعة « قد قدموا بين يدى الأعمال يصف المعرفة بالأسباب التى يستديمون بها صالح الأعمال . ويسهل عليهم مأخذه » هؤلاء جعلوا أيامهم فى الدنيا يوماً واحداً ويلة واحدة ، كلما مضت استأنفوا النية ، على أن تعود كما هى « إنهم طلبوا من أنفسهم حسن الصحبة ليومهم وليلتهم » كلما مضى يوم ويلة راقبوا أنفسهم ، خوفاً من أن تميل عن الطاعة ، فإذا صحت المراقبة ، كانت غنماً ، وتذكروا اليوم الماضى ، فأفعمهم سروراً . وصبروا أنفسهم على المستقبل لانقضاء الأجل فيه أوفى ليلته . فاطرحوا شغل القلب بانقضاء تذكر غد ، وأعملوا أبدانهم وجوارحهم ، وفرغوا له قلوبهم . هؤلاء أهل الطاعة ، قصرت الآمال عندهم بل انعدمت ، وقربت منهم الآجال ، فالمرت دائماً نصب أعينهم . بعدت عن قلوبهم أسباب وسواس الدنيا ، ولم يعد فى صدورهم سوى شغل الآخرة . ونظروا إلى الآخرة بعين البصيرة ، وتقربوا إلى الله بأزكى الأعمال ، فاستقامت سيرتهم على المحجة ، حين عاونتهم الزيادة فى التقوى . هؤلاء أهل الطاعة قرت أعينهم بالخوف ، وتنعموا بالحزن فى عبادتهم (٢) ، نخلت أجسامهم ، وبلبت أجسادهم ، وبيست على العظام جلودهم . ولم يعد بهم حاجة لكلام مع المخلوقات . . . لأنهم فى لذادة النجوى مع خالقهم « قلوبهم بملكوت السماء متعلقة » وذكرهم بأحوال القيامة مقبلة مدبرة . عريت أبدانهم بين المخلوقات ، فعموا عن دنيا هؤلاء ، وأصابهم الصمم لما عادوا يسمعون أهل الدنيا ، ولا من فيها وما فيها ، الآخرة أمام عيونهم كأنهم ينظرونها دائماً ، ألقى الله فى قلوبهم باليقين « وهو نور يجعله الله فى قلب العبد حتى يشاهد به أمور آخرته . ويخرق بقوته كل حجاب بينه وبين ما فى الآخرة ، حتى يطالع تلك الأمور كالمشاهد لها (٣) . بل إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب ملاء نوراً ، ونفى عنه كل ريب وشك وامتلأ القلب به شكراً ، ومن الله خوفاً (٤) .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٢ ، ٤٨٤ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٣) السلمى : طبقات ص ١٣٩ .

(٤) السلمى : طبقات ص ١٣٧ .

وهؤلاء عنده هم الحكماء «نظروا إلى الدنيا» بعين اليقين ، إذ صح عندهم أن شهوات الدنيا تفسد عليهم حكمتهم ونظروا إلى الآخرة «بأعين قلوبهم» فصبروا الدنيا عندهم معبراً يميزون عليها ، لا حاجة لهم في الإقامة فيها ، والآخرة منزلاً لا يريدون بها بدلاً ، ولا عنها حولاً ، فسرحت أحوالهم في ملكوت السماء ، واتخذوا للمكروه في جنب الله تعالى جنة . هؤلاء رحلوا إلى قرة العين وسعة الصدر وطيب النفس وروح القلب . . . من أمور أربعة استبانتم لهم الحجّة ، وأنسوا بالأحبة ، ووثقوا بالعدة ، وعابنوا للغاية (١) .

وهنا يعود ثانية إلى القلب . إن هموم هؤلاء الحكماء في قلوبهم وقلوبهم ساكنة عند الله . ثم يكرر ثانية أعين لقلوبهم . فيقول «نظروا بأعين القلوب واستريحوا دلالات العقول على جلب الهوى ، نظروا بأعين قلوبهم إلى الآخرة فأيقنوا واستبصروا ، ونظروا بأعين الوجوه إلى الدنيا ، فاعتبروا وانزجروا فاستصغروا ما أحاطت به أعين الوجوه من الدنيا» واستعظموا ما أحاطت به أعين القلوب من ملك الآخرة .

وهكذا نراه دائماً يلغى البصر ليقبى البصيرة ، وينكر عن الوجه ، متجهماً نحو عين القلب ، ناظراً فقط إلى الحكيم : هل هو العابد المسلم القديم ، أم سقراط الأفلاطوني ، أم الحكيم الرواقى ، أم الحكيم الجيمينوفيست - الحكيم الهندي العارى - أم هؤلاء جميعاً . إنه يجمعهم جميعاً في قوله : «تخلص إلى ذلك قوم من طريق الاجتهاد لتذلل النفس ، وتخضع لهم الجوارح ، فاجتهد قوم في الصلاة لدوام الخشوع عليهم ، واجتهد قوم في الصوم هُذو الجوارح عنهم ، واجتهد قوم في ترك الشهوات وطلب الفوز» وكل ذلك «من رياضة النفس حتى أفضوا بالأنفس إلى الجوع ونحول الجسم» وكلهم معلقون في ملكوت السماء (٢) ، كما قال .

رأينا إذن أن أحمد بن عاصم كان حقاً جاسوس القلوب ، وهو الذى يقول «إذا جالستم أهل الصدق ، فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القلوب . يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسون (٣)» . وجهد أن يعلم مرديبه علاجها ، فأكثر وأكثر من التكلم فيها ، بل وضع القلب مركز كل شيء في طريقه ، فالزهد ينتهى إلى القلب «استجلب حلاوة الزهد بقصر الأمل واقطع أسباب الطمع بصحة الأيأس» حينئذ تخلص إلى راحة القلب بصحة التفويض . وراحة البدن لن تكون إلا «باحجام القلب» ويخلص السالك إلى إحجام القلب بقلة الخطأ وترك الطلب . وإن «مجالس

(١) القشيري : الرسالة ج ص ٣٩٠ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨٥ ، ٢٨٩ .

(٣) القشيري : الرسالة ص ٣٩٠ والكلاياذى : التعرف ص ٨ .

الذكر» إنما غايتها « رقة القلب » ولن يصل المرید إلى استجلاب نور القلب « إلا بدوام الحزن واستفتاح باب الحزن إنما هو بطول الفكر ، والتماس وجود الفكر في مواطن الخلو (١) . مواطن الخلو : إنه يصبح صيحة رهيبة : اعمل على أن ليس في الأرض أحد غيرك ، ولا في السماء أحد غيره (٢) .

### المعرفة :

والغاية من تصفية القلب هي التوصل إلى علم « المعرفة » إنها نور اليقين ، بها يعرف الإنسان نفسه ، ثم يعرف ربه . وقد رأينا من قبل بما ذكره من خاض العلوم المختلفة . وطالع الحكمة ، ودرس المعقول والمتقول فلم يجد « من العلم علما ، ولا للصدر أشنى ، ولا للهم أبقى ، ولا بالعبد أولى من علم معرفة المعبود ، وتوحيده ، واليقين بآخرته » . ومهما جهد السالك نفسه فلن يصل إلى نهاية هذا العلم « والفكر ليست لها غاية ، والإلهام لا نهاية له (٣) » ، وبدون هذا العلم يصح الارتباب أى الشك ، إنه هو الطريق الوحيد اليقيني لمعرفة الله . ولذلك يقول لأحمد بن أبي الخوارى : « ما أعبط أحداً إلا من عرف مولاه ، وأشتهى أن لا أموت حتى أعرفه معرفة العارفين الذى يستحيونه لا معرفة التصديق . ومرة أخرى يقول له : « أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي . يا أحمد ، ليس المعرفة بالإقرار به ، ولكن المعرفة التى إذا عرفت ، استحيت (٤) وإذا ما توصلت النفس إلى معرفة الله ، المعرفة الذوقية الانقداحية ، وتوضحت لها حقيقة لفظة الجلالة « تلذذت الجوارح بذكرها ، وهشت الأبدان لاستماعها ، ووضحت العقول حقائقها ، وهان على السامع وعيها ، مستأنسة إليها أرواح الموقنين ، مطمئنة إليها أنفس المتقين ، وآلهة عليها أبصار المتفكرين ، قنعة بها قلوب المستبصرين . متناهية إليها أوهام المتوهمين ، ساكنة إليها فكر الناظرين ، مستبشرة بها إخلاص الصديقين ، كلمة خف على القلوب محلها . ولأن على الجوارح ملفظها ، وسلس على الألسن ترداها ، وعذب على اللهوات مقالها ، ويرد على الأكباد لذاتها (٥) » وتلك هي غاية الزاهد . . .

وبعد : فتلك صورة تركيبية لأفكار الشيخ القديم من زهاد المسلمين ، وأول زاهدى أنطاكية ، الثغر الشمالى الغربى . ولكن ما لبث أن ظهر فى أنطاكية مدرسة زهد تختلف أشد الاختلاف عن منهج أحمد بن عاصم . كانت تستند أولا على الفقه والحديث ، وإن أنكرتها حين بلغ الزهد بهم مداها (٦) .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٨٨ .

(٢) السلى : طبقات ص ١٣٩ .

(٣) أبو نعيم : ج ٩ ص ٢٨٩ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٩ ص ٢٨٩ .

(٥) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨٢ ، وابن الجوزى صفة : ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٦) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٨١ .

## ٢ - يوسف بن أسباط :

وكان أبرز هؤلاء الزهاد من أهلها- وكما قلت من قبل- هو يوسف بن أسباط (المتوفى عام ١٩٩) الزاهد والفقير والمحدث الشامي المشهور. وتتميز مدرسة أنطاكية، وبخاصة في يوسف بن أسباط، ميزان زهاد الثغور والعواصم: اجتماع الفقه والحديث والزهد في شخص العابد أو الزاهد أو المرابط. ولقد كان يوسف بن أسباط من كبار المحدثين. إذ تلقى الحديث والفقاه عن إمامه الكبير سفيان الثوري. وهذا يعني أن يوسف بن أسباط عاش في الكوفة فترة، وانتقل مع سفيان الثوري وصاحبه في رحلاته المتعددة. ثم مالبت أن عاد إلى شيخ موطنه حيث استقر فيه، وكان شيخ قرية من قرى أنطاكية<sup>(١)</sup>.

كان يوسف بن أسباط أكبر تلامذة الثوري بلا شك، وقد حمل فقهه وعلمه، كما حمل تزهد عبادته إلى الشام، بل حاكاه حتى في أسلوب حياته. وقد اتخذ قاعدة أستاذه «كان لا يقبل من الإخوان ولا من السلطان شيئاً» بل زاد أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم، ولم يأخذ منها شيئاً، وكان يتكسب من صنع الخوص بيده<sup>(٢)</sup>. وقد نأى بهذا عن الأمراء والحكام، وازدراهم كما ازدراهم سفيان من قبل «ويذكر تلميذه عبدالله بن ضيق أنه كان لديه حين حضر أمير أنطاكية -وعليه «قلنسوة شامية» يسأله في مسألة فقهية. فرد عليه يوسف «إن أستاذي سفيان كان لا يقبى من على رأسه مثل هذا»، فأطاع الأمير وخلع قلنسوته. فأفتاه سفيان<sup>(٣)</sup>. . . وأطلق صيحة أستاذه الرهيبية - في الشام كما أطلقها سفيان من قبل في الكوفة «الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا»<sup>(٤)</sup>، ثم انقض يوسف على القراء، كما انقض أستاذه من قبل «والله لقد أدركت أقواما فساقا، كانوا أشد إبقاءً على مروءاتهم من قراء أهل هذا الزمان على أديانهم» ثم يردد «إياك أن تكون من قراء السوء». . . ويردد أقوال سابقيه في هؤلاء القراء: الحسن البصري وأبا رزين والثوري بل خشي يوسف على الأمة كلها من هؤلاء القراء «إني أخاف أن يعذب الله الناس بذنوب العلماء»<sup>(٥)</sup> وهو ينهى صديقه العابد أبا إسحاق الفزاري عن الحديث «بلغني أنك صرت آنسا بأهل الخفاء». فرد عليه

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.

ماكس ماير صوف: انتقال التراث من ٦٧ - ٧٣.

(٢) القشيري: الرسالة ج ٢ ص ٥٤٣. وأنظر أيضا قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ٥٢٣، ج ٢ ص ٤٦١، ٤٦٢.

(٣) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٢٣٨، ابن الجوزي، صفة ج ٤ ص ٢٣٦.

(٥) نفس المصدر: ج ٨ ص ٢٣٩، ابن الجوزي، صفة ج ٤ ص ٢٣٦.

أبو إسحاق الفزاري - كيف أصنع بهذا الجرب - يعني الحديث « فكتب إليه يوسف : « لا تحكه حتى لا يحكك »<sup>(١)</sup> . وهذا يدل أيضاً على أن يوسف - كسفيان الثوري تماماً - انتهى إلى كراهية التحديث - حين رأى القراء يتخذونه سلماً للخلفاء ، وطريقاً للغنى والثروة . وهذا ما دعا سفيان الثوري من قبل أن يلعن هؤلاء القراء - وأن يقول لأحدهم وقد تزين : « تزينوا بما شتم ، فلن يزيدكم إلا انضاعاً » وعاد أيضاً إلى كراهية حلقة أبي حنيفة ، وقد رآها ترجو وصال الخلفاء ، ثم تضع الجبل للناس ، وقد أدى هذا إلى محاربة فقهه . ونشر فقه أبي حنيفة ، فمات الفقه الأول ، وعاش الفقه الثاني . وكذلك فعل يوسف بن أسباط في الشام . وكان يقول : إذا رأيت الرجل قد حدثنا ، فلا تعظه ، فليس للموعظة فيه موضع ، وإذا رأيت الرجل منهم قد أشر ويطر ، فلا تعظه فليس للعة فيه موضع » ونراه دائماً يتكلم عن داود الطائفي<sup>(٢)</sup> ، ويذكر أخباره ، وقد كان داود من تلامذة أبي حنيفة ، ثم كره الفقه والحديث .

وعاش يوسف بن أسباط في ضواحي أنطاكية - كما قلت - حاملاً « طريقة الثوري » الزهد الذي يحكه الفقه - أو بمعنى أدق ما أسميه « بالزهد السني » فيقرر أن الزهد هو في حلال الله ، أما الزهد فيما حرم الله ، فليس زهداً ، إنه واجب المسلمين جميعاً . ولما سئل عن غاية الزهد ، أى الزهد في كماله أجاب : بأن لا تفرح بما أقبل ، ولا تأسف على ما أدبر . وأما التواضع فهو كماله فهو عنده « أن تخرج من بيتك ، فلا تلق أحداً إلا رأيت أنه خير منك » . . . « والدنيا دار نعيم الظالمين » ويتمثل بقول الإمام على « الدنيا جيفة ، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب »<sup>(٣)</sup> .

وكان أمانه - كما قلت - حب الرياسة وشهوتها . وهى - كما قال - أشد من حب الدنيا نفسها . وهنا يقول . لى أربعون سنة ، ما حك في صدرى شيء إلا تركته . وهذا بلا شك من أعظم المعاناة في التصفية ، ولذلك لم يتمكن من أن يميز بين صحة العمل إلا بعد علاج نفسه استمر لمدة عشرين عاماً « تعلموا صحة العمل من سقمه ، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة »<sup>(٤)</sup> . وهكذا كان يوسف بن أسباط المعلم الكبير لطريقة الثوري في أرباض الشام فقيه من ناحية ، وزاهد من ناحية أخرى . . .

وكانت مشكلة الحلال والحرام في الأرزاق مشكلة الزهاد . ووقف يوسف في حلقة يقول كفيه

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٣٩ .

(٢) القشيري : الرسالة ج ١ ص ٧٤ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٣٦ ، وأبو طالب المكي : قوت ج ٢ ص ٥٩٢ .

« الأشياء ثلاثة ، حلال ين ، وحرام ين لاشك فيه ، وشبهات ين ذلك . . . وماذا يفعل المؤمن حيال هذا : يجيب يوسف « المؤمن من إذا لم يجد الحلال يتناول من الشبهات ما يقيمه . . . ولكنه ما يلبث أن يقرر كزاهد - أن الزهد . . . هو الزهد في الحلال « إن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض ، والحلال المحض لا يعرف اليوم » (١) .

وتكلم يوسف بن أسباط في خطرات القلوب . . . خلق الله تعالى القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن الشهوات ، ولا يفسد القلوب سوى الشهوات والطريق نحو الشهوة هو خوف مزعج أو شوق مقلق « فهو إذن يضع الزاهد بين درجتين ، أو مقامين مقام الخوف ، أو مقام الشوق » (٢) وكان هو يدعو الله « اللهم عرفني نفسي ، ولا تقطع رجاءك من قلبي » . . . ولكي يعرف نفسه يدعو في رسالة له إلى حذيفة المرعشي « أن يعمل بما علمه الله » وهو هنا يشير إلى العلم اللدني ، والمراقبة « حيث لا يرأى أحد إلا الله » والمراقبة هنا تعني مراقبة النفس . . . ويحذره التشاغل بالوصف وترك العمل بالموصوف وأن يراعى « الدقيق الخفي والجليل الجاني » . . . ويحذره « وساوس الصدور » . . . ولحظات العيون « وإصغاء الأسماع » . . . ويرزق الصادق في كل هذا ثلاث خصال : الخلاوة والملاحة والمهابة (٣) .

وكان يتكلم عن استكمال الإيمان ، ويذكر أن لا بد من ثلاث خصال لتحقيق هذا : من إذا رضى ، لم يخرج رضاه إلى باطل ، وإذا غضب ، لم يخرج غضبه عن حق . وإذا قدر ، لم يأخذ ما ليس له (٤) .

وحين أراد الذهبي أن يورخ بين المحدثين في ميزان الاعتدال وصفه بالوعظ والزهد فقال : « يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ » وذكر أنه أخذ عن سفيان الثوري وغيره ، وأخذ عنه عبد الله بن حبيب الأنطاكي . ثم ذكر أن البعض عدلوه ، والبعض جرحوه . وذكر قول البخاري فيه « كان قد دفن كتبه ، فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي » (٥) « ونحن نعلم أن الرجل كان قد ترك الحديث حين تزهّد ، بل امتنع عنه ، ونهى أصحابه عنه . ولم يكن هذا ضعفاً أو داعياً لوضعه في الضعفاء ، وإنما هي سنة اتخذها كبار القراء وفي مقدمتهم سفيان ، حتى تزهّدوا ، ونحن رأوا كبار القراء والفقهاء يتخذون الحديث سلماً للدنيا وللمنصب .

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، وأبو طالب : قوت ج ١ ص ٥٤٥ .

(٢) ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٣٦ .

(٣) نفس المصدر : صفة ج ٤ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٤) أبو طالب المكي : قوت القلوب ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٤ ص ٤٦٢ .

هذا كل ما ذكر لنا عن يوسف بن أسباط - فيما بين أيدينا من مصادر- ولا شك أن هناك المزيد ، لم نكشف عنه . ومن العجيب أننا لم نلاحظ - فيما ترك لنا من نصوص أنه اعتنق نظرية الخلة ، ونظرية الحب ونظرية الروحانية ، وهي كلها نظريات تبناها الثوري في نهاية حياته ، وتحت تأثير مدرسة البصرة .

### ٣ - أبو محمد عبدالله بن خبيق :

واقتربت مدرسة أنطاكية من التصوف على يد تلميذ يوسف بن أسباط وهو أبو محمد عبدالله بن خبيق الأنطاكي . ويعتبره الكلاباذي « أول من صنف في علم المعاملات »<sup>(١)</sup> وأما السلمي فقد وضعه في الطبقة الأولى من الصوفية ووصفه بأنه من « زهاد الصوفية ، والآكلين من الحلال ، والورعين في جميع أحواله »<sup>(٢)</sup> وكذلك القشيري فإنه يذكره بأنه كان من زهاد المتصوفة<sup>(٣)</sup> نرى من هذا كله أننا أمام بدء التصوف الحقيقي ، كعلم من علوم المعاملات ، بين الإنسان وربه . وتجمع المصادر على أنه أخذ عن يوسف بن أسباط واستفاد به . ويذكر أن أصله من الكوفة ، ولكنه من الناقلة إلى أنطاكية وأن طريقته في التصوف هي « طريقة الثوري فإنه صحب أصحابه »<sup>(٤)</sup> ولا شك أن الرجل - وقد عاش حياته في الكوفة ، وعلم بعظمة سفیان الثوري الفكرية والروحية فسعى إلى أصحابه . ولزم يوسف بن أسباط ، وغيره من أصحاب سفیان ، فدرس الفقه والحديث ، ثم ترهد وتصوف ، كما أنه تردد على كثيرين من رجال الزهد في الشام والعراق والحجاز ، حتى انتهت إليه رئاسة مدرسة أنطاكية الروحية .

وقد عانى الرجل نفس التجربة التي عاناها أستاذه يوسف بن أسباط مع القراء وقد نهاه أستاذه يوسف ، عن أن يكون « من قراء السوق » ويقول هو نفسه حاضاً القراء على عدم ارتكاب المعاصي ، « إذا دنا الرجل القارئ من معصية ، يقول القرآن في جوفه ، ما لهذا حملتي »<sup>(٥)</sup> . كما نهاه شيخه الآخر حذيفة المرعشي عن حب الدنيا والناس ، وعلمه الفضيل بن عياض عن رياء النفس فقال له « رأس الأدب عندنا أن يعرف الرجل قدره » وانجه إلى القلب . . . كما اتجه الزهاد من قبله ، يحاول أن

(١) الكلاباذي : التعرف . . . ص ١٢ .

(٢) السلمي : طبقات ص ١٤١ .

(٣) القشيري : الرسالة . . ج ١ ص ٩٩ .

(٤) السلمي : طبقات ص ١٤١ ، والقشيري : الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، والشمراني : طبقات ج ١ ص ٧١ .

(٥) السلمي : طبقات ص ١٤٣ .

يتقيه ، ويجعله باب المعاملات ونهايتها مع الله<sup>(١)</sup> . فيتكلم عن محور « الشهوات من القلوب » ووحشة العباد عن الحق ، وأوحشت منهم القلوب ، ولو أنسوا بربهم ، ولزموا الحق ، لاستأنس بهم كل أحد» وطول الاستماع إلى الباطل ، يطنى حلاوة الطاعة من القلب . وهو يرى أن الغنى هو ألا يسكن الطمع القلب .

ولقد خاض الزهاد من قبله في كل تلك المعاني ، ولكن ما هو الداعي لاعتباره من زهاد المتصوفة وتخصيصه بهذا الاسم دون أساتذته . . . إن أكثر ما تركه عبد الله بن خبيق من آراء هي آراء يوسف بن أسباط وحذيفة بلفظها . . . ولكن عبد الله بن خبيق تميز - وكما قال الكلاباذي - بأنه من أوائل من تكلموا في معاملات القلوب ، واختص بالتحدث في الأحوال ، والنصوص قليلة . . . ولكن من المؤكد أنه تكلم في الأحوال ونظمها وهو يصدد التكلم عن الصدق . يقول « لا يستغنى حال من الأحوال عن الصدق ، والصدق مستغن عن الأحوال كلها ، ولو صدق العبد فيما بينه وبين الله ، حقيقة الصدق ، لأطلع على خزانة من خزانة الغيب ، ولكان أميناً في السموات والأرض »<sup>(٢)</sup> . . . وهو هنا يستخدم كلمة الأحوال كمصطلح ، ويتين هذا من نص آخر ، يسأله فيه أحد المريدين « بماذا ألزم الحق في أحوالي ، فيجيب عبد الله بن خبيق « بإنصاف الناس من نفسك ، وقبول الحق ممن هو دونك »<sup>(٣)</sup> . . . ولعل هذا مما دعا الكلاباذي إلى اعتباره أول من صنف في علم المعاملات ، أي معاملات القلوب على الإطلاق .

ولكن إذا كانت فكرة الأحوال قد انتظمت له ، فإنه أيضاً خاض في فكرة السلوك . . . وهو يتكلم عن العمل ، فيرى أن «إخلاص العمل أشد من العمل ، والعمل يعجز عنه الرجال » ويربط الرجاء بالعمل ، فأنفع الرجاء ما سهل على المرید العمل ، لإدراك ما يرجو . . . وقد اهتم عبد الله بن خبيق بالرجاء . ونحن نعلم أن مفهوم الرجاء قد « أخذ مكانه لدى الصوفية من بعده ، واعتبر الرجاء « تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل ، وهو حياة القلوب واستقلالها بالأجر الأخرى . وفرق الصوفية بين الرجاء والتقى ، إن التقى أمنية تتردد ، خاطر يرد ، فهو مرتبط بالكسل ، أما الرجاء فهو سلوك طريق الجهد والجهد . . . وكان ابن خبيق من أوائل من تكلموا في الرجاء وقسمه إلى ثلاثة - رجل عمل حسنة ، فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ، ثم تاب ، فهو يرجو المغفرة . ورجل كاذب

(١) أبو نعیم : حلیة ج ١٠ ص ١٦٨ .

(٢) السلي : طبقات ١٤٤ أبو نعیم : حلیة ج ١٠ ص ١٦٩ .

(٣) السلي : طبقات ١٤٥ .

يتأدى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة (١) . والرجاء يرتبط بالآثار عنده ، وهو يصرح « إن استطعت ألا يسبقك أحد إلا مولاك فافعل » .

كانت آراء عبد الله بن خبيق اقتراباً من مفهوم التصوف كما قلنا . ولكن لم تكن أنطاكية وحدها تقرب من مفهوم التصوف ، كانت مراكز أخرى للزهد الضارب نحو التصوف في ثغور الشام .

---

(١) الفشيري : الرسالة ج ١ ص ٢١٨ .

## الفصل الخامس

### الزهد الضارب للتصوف في ثغور الشام

١- سليمان الخواص : فكرة الظلمة :

كان الزهد في ثغور الشام يقترب حديثاً من التصوف ، وبدأت تظهر لمحات صوفية تكاد تكون مذهباً على أبدي زهاد متفرقين هنا وهناك في الثغور والعواصم . حقاً كانت التجربة الروحية لدى كل واحد من هؤلاء تعبر عن حياة الأنا الداخلية ، ولكن ثمة رباط كان يجمع بين هؤلاء جميعاً هو البحث في إرادات القلوب ، في علم إرادة النفس ، كما كان يجمعهم جميعاً ، التغنى « بالحلب الإلهي » والغناء في الذات الإلهية ، وقد رأينا من قبل ، كيف ابتعد بعض العباد عن ظواهر العبادات . لكني ينظروا في بواطن القلوب ، ويتعكسون على الداخل فقط . بل كان البعض منهم ينظر إلى ما يفعله كبار الزهاد - نظرة السخرية لما يفعلون . وهذا سليمان الخواص - وكان ممن يحضر حلقة الأوزاعي أحياناً ينأى عن المجلس في صمت ، حين يعلن سعيد بن عبدالعزيز العابد الشامي في المجلس أنه لم ير أزهدهم من سليمان . ويمر سليمان الخواص بإبراهيم بن أدهم وهو شيخ الزهاد في هذا العصر - على الإطلاق - وهو عند قوم أضافوه وأكرموه . ويصيح سليمان الخواص معاتباً « نعم الشيء هذا يا إبراهيم ، إن لم تكن تكرمه على دين ... ويمر الناس به ، فلا يسلم . ولا يابه بإنسان »<sup>(١)</sup> .

ويدخل عليه سعيد بن عبدالعزيز ، ويراه في الظلمة ، وستكون الظلمة سنة للصوفية من بعده ... ويقول له سعيد : أراك في ظلمة . ويرد سليمان الخواص « ظلمة القبر أشد من هذا . ويعرض عليه سعيد صرة فيها بعض المال فيرفض أشد الرفض . فيطلب منه الدعاء . فيصرخ سليمان صرخة رهيبة « مالك - ياسعيد - فتنتني بالدنيا ، وتفتني بالدين ، مالي والدعاء ... من أنا » وحين يضحخ التصوف ، سنرى الصوفية يسخرون من الدعاء . إنه لن يغير الجبرية الإلهية المطلقة ، لادعاء ولا دعاؤون ، لقد نزل الحكم المطلق ... قديماً ، ونحن أشباح ، وظلال ، على مسرح الوجود العظيم ...

(١) السلي : طبقات ص ١٤٤ ، ٤٦٥ القشيري : الرسالة ج ١ ص ٩٩ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧٤ ألى ٢٧٧ .

وسمع الأوزاعي - عالم الفقه - يقول « دعوا سليمان ، لو كان سليمان من الصحابة ، كان مثلاً » وقد تلمذ مضاء بن عيسى الزاهد المشهور على سليمان وأخذ عنه... (١) .

#### ٢- سلم بن ميمون الخواص : المعراج الروحي :

وتظهر فكرة صوفية خطيرة على سلم بن ميمون الخواص من زهاد طبرية وهي معراج النفس إلى الرسول ، ثم إلى جبريل ثم إلى الله... حيث يقرأ القرآن على كل (٢) . ويستوضح في صوفية القرن الثالث والرابع فكرة المعراج هذا ، ثم ستظهر لدى السالمية فكرة تجلي الله على لسان كل قارئ للقرآن .

#### ٣- أبو عبيدة الخواص : الحب الإلهي :

ولكن ما لبثت الفكرة الصوفية أن ظهرت في صورة أوضح على يد خواص آخر ، هو أبو عبيدة الخواص - أو عبيدة الساحلي - عباد بن عباد ، وقيل أيضاً أن كنيته أبو عتبة . ويبدو أن موطنه كان مدينة صور ، ولكنه كان ينتقل على الساحل ، كذلك ظهر إلى البصرة وعاش فيها ، كما تلمذ هو على الأوزاعي وأبي بكر بن مريم وقد روى أخباره أحمد بن أبي الخوارى وبشر بن الحارث الصوفي البغدادي المشهور (٣) .

ويبدو أن أبا عبيدة الخواص كون مدرسة ، وكان له أتباع .

وقد تركت لنا رسالة كتبها إلى إخوانه يعظهم ، وهو يطلب فيها أن « يعقلوا » والعقل نعمة ، ولكنه يخشى عليهم أن « يتعمقوا فيما هو عليهم ضرر » فيسهون عن الحق كأنهم لا يعلموه... والحق واضح . ويخاف عليهم زلات العلماء ، حملوا العلم ، ففسدوا به ، كانت غايتهم أن يعرفوا بحمله ، وكرهوا أن يعرفوا بإضاعة العمل ، والعمل أهم في رأيه من العلم وهنا نطق هؤلاء العلماء بالهوى ، أخذوا يخللون ويحرمون « ليزنوا ما دخلوا فيه من الخطأ » . ويقرر أن ذنوب هؤلاء ذنوب لا يستغفر منها ، وتقصيرهم فاق كل تقصير . كيف يهتدى هؤلاء « وكيف يهتدى السائل ، إذا كان الدليل حائراً ، أحبوا الدنيا ، وكرهوا منزلة أهلها . فشاركوهم في العيش ، وزابلوهم بالقول (٤) » .

ويبدو أن النزاع بين الزهاد والفقهاء كان قد بلغ أشده ، وأخذ أبو عبيدة الخواص ، كما أخذ غيره

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٨٦ / ٢٧٧ ، وابن الجوزي : صفة ح ٤ ص ٢٤٧ / ٢٤٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧٧ / ٢٨١ ، وابن الجوزي صفة ح ٤ ص ٢٤٨ / ٢٤٩ .

(٣) ابن الجوزي صفة ج ٤ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ابن الجوزي : صفة ج ٤ ص ٢٤٩ .

من الزهاد ، ينهون عن سؤال هؤلاء العلماء ، إنهم حيارى ، لا دليل لديهم على طريق إلى الله . أما الطريق إلى الله عنده . . . فهو طريق الزهاد ، وجوهره الحزن « الحزن جلاء القلوب ، به ليستم مواضع الفكر » . . . وكان يبكي ، إنه لم يضحك أربعين سنة ، بل قيل إنه منذ سبعين سنة ، لم يرفع رأسه إلى السماء حياة من الله .

كان هذا هو الجانب الزهدي في حياة أبي عبيدة الخواصر ، فما هو الجانب الصوفي لديه :  
كان بشر بن الحارث على جبال عرفة ، فرآه ، وقد بلغ به الوله ينشد :

سبحان من لو سجدنا بالعيون له	على شبا الشوك والمحى من الإبر
لم يبلغ العشر من معشار نعمته	ولا العشير ولا عشرا من العشر
هو الرفيع فلا الأبصار تدركه	سبحانه من ملك نافذ القدر
سبحان من هو أنسى إذ خلوت به	وفي جوف ليلي وفي الظلاء والسحر
أنت الحبيب وأنت الحب يا أملى	من لى سواك ومن أرجوه يا ذخرى

ثم سمعه ينشد أيضاً :

كم قد زللت ، فلم أذكرك في زللي	وأنت ياسيدي في الغيب تذكرني
كم أكشف السر جهلا عند معصيتي	وأنت تلطف بي حقاً وتسترني
لأبكين بدمع العين من أسف	لأبكين بكاء الواله الحزن

ثم غاص في غمار التامس . . .

إن من الواضح إذن أن الأبيات في الحب الإلهي ، وهي حديث هادئ بينه وبين محبوبه على جبال عرفات . . . يتضح فيها روح الجذبة الصوفية لدى المحين من متأخري الصوفية .

ولكن ما يلبث أبو عبيدة الساحلي ، أن يذهب للبصرة ، وهناك ، في بلد الحب ، وفي صورة سيعلنها الخلاج من بعد ، يمشي في طريق البصرة ، وعلى سرته خرقة ، وعلى رقبته خرقة . . . فكان إذن من أوائل من لبسوا الخرقة الصوفية ، ثم يصيح : واشوقاه - إلى من يراني ولا أراه . . . ثم ما هو وقد كبر - يأخذ بلحيته ويمر في الطرقات صائحاً « قد كبرت فاعتقني <sup>(١)</sup> » وسنجد هذه الصورة أيضاً تتردد في أعماق الخلاج في أسواق بغداد .

٤ - أبو عبد الله الصوري : محمد بن المبارك : علم طريق الآخرة :

ويبدو الزهد الضارب إلى التصوف مرة أخرى في زاهد من زهاد إحدى الثغور - وهي مدينة صور - في شخص أبي عبد الله الصوري - محمد بن المبارك عن علم « طريق الآخرة » وهو عنده وعند أصحابه من بعده طريق محمد ، وهو ممدود لأهل الإيمان بالله من الدنيا إلى الآخرة . والإيمان نوعان : إيمان ظاهر وقع به الستر الظاهر ، وإيمان باطن - وقعت به الخشية الباطنة أما الإيمان الظاهر فهو « إقرار اللسان بالتوحيد ، وموافقة جوارح الأبدان فرائض التوحيد » . وهذا الإيمان لا بد منه لحياة المرء في مجتمعه وبه يحتمن الإنسان دمه وماله وهذا ما يقصد بالستر الظاهر به . أما الإيمان الباطن الذي تقع به الخشية الباطنة ، فهو عند محمد بن المبارك وعند أصحابه هو « إيمان القلب » ويقسمه إلى ثلاثة : الأولى : التصديق لله فيما وقع به وعده ووعيده - الثاني : حسن الظن بالله تعالى من غير المعرفة . الثالث : إلقاء التهم عن الله من عقد الثقة به .

أما التصديق الأول ، وهو التصديق لله ، فإنما هو من عين المعرفة بالله . وشرطه صحة المعرفة ، فإن صحت ، سقط الارتباب عنه لسقوط الجهل به عن قلبه فلما سقط الجهل ، اعتقد القلب تصديقاً ، قد دلت المعرفة على تصديقه فإذا وصلت القلوب إلى هذه الدرجة ، وتمكن التصديق في عقائدها ، انفتحت من هذا « نور فيه دلالة النفس على مكوئها ، فإذا صح العلم فيها بأنها مكوئة لا من شيء كونت ، ولها وجود ما علمته من خلقها ، على الشيء المغيب عنها ، أنها أعجب مما قد شاهدته بنظر ، فههنا سكن القلب إلى تصديق الرب عز وجل فيما وقع الوعد به ، وينصرف الهم إلى تجريد العناية إلى ما وقع به أمر الله ونبيه .

والإيمان الثاني : وهو حسن الظن بالله من غير المعرفة . ويشرحه بأن علم المعرفة بالله أن الله عز وجل أحسن إلى الإنسان في خلقه تفضلاً منه عليه ، لا باستحقاق عمل متقدم كان منه إليه . وابتداؤه تفضل الله عليه بنعمة الخلقة ، فيقيم النظر من العقل الباطن في الأشياء ، فينظر إلى كل ما منعه الجهل من معرفته وإلى طلب الزيادة في التصديق بالله وحسن ظنه بما جرى فيه تدبيره ، فيصل إلى العلم بأن وهن تصديقه وضعف حسن ظنه من جهله بربه . وهنا تنتقل إلى المقام الثالث :

والإيمان الثالث : هو مقام المعرفة ، وأن تلقى التهم عن الله ، وتعتقد الثقة به . . . هنا « مقام تنهك فيه ستور الجهل ، وتقع البصيرة من النظر ، والتأمل ، الذي يكشف عن أضرار الجهل » فإذا أثبت القلب هذا معرفة ، علم أن الله قد نقله من التراب إلى حسن خلقته ، وزين خلقته باستواء العافية في خلقته سترًا يتقلب فيه ، وتطيب بهذا الستر معيشته « فإذا صح العلم بهذا ، كان الله غير جائر في رحمته

حين نقله من التراب إلى حسن خلقته وسواه رجلاً ، وهو أيضاً غير جائز في حكم يوقعه برحمته . . . هنا يعرف سر القضاء التنازل ، أحكام الله كلها رحمة . هنا يعبر محمد بن المبارك هو وأصحابه وحلقته عن تلقى الأحكام الإلهية ، الحكم النافذ من الله - وهي كلها رحمة من الله . . . وسرى هذا المعنى يضحخ ويكبر لدى الهروي الأنصارى الصوفى المشهور وغيره ، فيما بعد . ويرى محمد بن المبارك أن الخروج من اتهام الله إنما سببه « ضعف المعرفة وقلة تصديق القلب بالعزة ، واجتماع القلب من الجهل بالمعرفة على حب الدنيا دون الآخرة ، فمن لم يصدق الخبر تصديقاً يؤدي إلى ثقة ، بما وقع به الخير ، كان الله عنده غير وقي ، فيما وعد » . فحسن الظن ، رأوا المرحلة الثانية من الإيمان مرحلة هامة ، هي أصل ، ولكن لا بد لها من فروع وهي السكوت والثقة والطمأنينة والرضا . والسكوت إنما يحدث من يقين المعرفة لامن يقين الإيمان ، حقاً لقد مسته شعبة من يقين الإيمان ، ولكن لا بد له من أنوار المعرفة . ويشبه المعرفة بمثال الماء السائل في حدوره ، إذا حملته السيول إلى مغيضه ، إنه يكون متحركاً جارياً في مسيله ، وكذلك المعرفة في سيلها إلى القلب ، تكون وهي متجهة إليه ، محاولة الحصول عليه ، متحركة غير ساكنة فإذا وافت مغيضها من القلب ، سكنت ، إنها تشبه تماماً سكون الماء في مغيضه ، وهنا يصفو القلب ، يصفو نوره خالياً من كل شائبة . . . انظر قرار الماء تجده قد تخلى عن الطين ، لقد سقط الطين في أرض المغيض ، فسد خروقه ، وصفا الماء . . . وسكن « وكذلك المعرفة إذا سكنت في القلب ، وتمكنت بالتصديق والثقة منه تراخت منها علوم مؤكدة ، فسدت خروق القلب التي كانت الآفات الوسواس » فتخلصت المعرفة منها ، وكما كان الماء لا يصلح للبشر في وقت انحداره وسيله إلى مغيضه - كذا المعرفة ، إذا لم تكن متيقنة صافية ، لم تصلح لشرب العقول منها . لذلك كان علم العلماء ، لا يصلح لعطش العقلاء ، إنهم مزجوا علمهم بحب الدنيا . . . أما معرفة الزاهد ، فلا تتخذ عن هؤلاء بالعلم والتلقين ، إنها هبة ، أو إلهام هي التي تصنى نفسها بنفسها ، كاللحاء « هو استقل بنفسه عن الذي كان مازحه « فصفا وراق » وهكذا العالم الدليل ، إذا علم ودل ، لم يدل على مولاه غيره بل علمه ، فإذا ترك دلالة نفسه ، لم تصلح دلالاته كغيره (١) . وإذا صح أن هذا النص لمحمد بن المبارك ولأصحابه فيكون أول محاولة في هذا القرن - أى القرن الثاني - لوضع مذهب في التصوف ، وأول محاولة لتبيين أنواع الإيمان ، كما أنه صرح تمام التصريح بالمعرفة ، النور الملقى في القلب كطريق للمنح الصوفية . ولذلك خشى دعوى الكثيرين المعرفة واتحالم لها . لذلك يقول « ما ترى إلا متغيراً بشهوة من نفسه ، ومأخوذاً بيوافق دنيا غيره ، كذب مؤمن ادعى المعرفة بالله ، ويداه ترعى في قصاع المستكثرين ، ومن وضع يده في قصعة غيره ، ذلت رقبته » بل إنه ينكر محبة الله

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٩ - ٣٠٣ .

على هؤلاء « وما أثبت لأحد ، ادعى معرفة الله ، وهو يلف الثريد بثلاثة أصبع » . ثم يكرر ثانية « ليس من المعرفة بالله ، أن تجعلها - بمعنى النفس - مطية لهوى غيرك ، وطريقاً لطلب دنيا مخلوق غيرك » . ويقول : « ما آمن بالله من رجا مخلوقاً ، فيما ضمن الله له <sup>(١)</sup> » كان هذا كله لكي يبعد المريدين عن العلماء الذين رجوا الدنيا بالتقرب للخلفاء ، وتردد على قصور الأغنياء . ولذلك أخذ يعالج القلوب ، ويطلب أن تكون الأعمال صادرة عنها لا عن الجوارح « أعمال الصادقين لله بالقلوب ، وأعمال المرأين بالجوارح للناس ، فن صدق فليقف موقف العمل لله ، ولعلم الله به ، لا لعلم الناس لمكان عمله » .

ويتهى طريق الزهد عنده أو هذا الزهد المتصوف إلى الحب الإلهي : « إن في قلبك وجعاً لا يبريه إلا حبه ، ولا يستنطقه إلا الأنس به ، وجوعاً لا يشبعك إلا طعمت من ذكره ، وعطشاً لا يرويه إلا ما وردت عليه لذته للذاذة مناجاته <sup>(٢)</sup> » . . . . إذن فالآلام والأوجاع ، والجوع والعطش . . . ليست هي أشياء مادية ، إنما هي معاني فقط للحب الإلهي . . . والأنس بالمحجوب ومناجاته .

ولذلك يقص علينا محمد بن المبارك قصة مقابلته في جبال بيت المقدس لامرأة عليها مدرعة من صوف ، ونخار من صوف - ولعل القصة مفتعلة كعادة الكثير من الزهاد والصوفية فيما بعد ليقصوا خلالها أحوالهم ومواجيدهم . . . على أية حال ، إنه يذكر أنها سأته : من أين أنت ، فأجاب بأنه رجل غريب : وتعجبت المرأة وقالت : « سبحان الله - فهل تجد مع سيدك وحشة الغربة ، وهو مؤنس الغرباء ، ومحدث الفقراء » فبكى محمد بن المبارك : فقالت « أو لا يبكي العليل ، إذا وجد طعم العافية » فلما سألتها عن السبب أجابت ، لأنه ما خدم القلب خادم هو أحب إليه من البكاء ، ولا خدم البكاء خادم هو أحب إليه من الزفير والشهيق في البكاء . . . فلما طلب منها أن تعلمه الحكمة وأن تمضي في حديثها : قالت : سبحان الله - أو ما كان في موقفنا هذا ما أغناك من الفوائد عن طلب الزوائد : قال : لا غنى لي عن طلب الزوائد : وهنا قالت : حب ربك ، شوقاً إلى لقائه ، فإن له يوماً يتجلى فيه لأولياته <sup>(٣)</sup> » . إذن هي غاية الصوفي ، سواء ذكرتها له هذه الصوفية الهاتمة في جبال ، أو وضعها هو على لسانها « الحب الإلهي والشوق العارم لرؤيته ، متجلياً في بهائه لأولياته . . . ومن العجب أيضاً أن يذكر محمد بن المبارك هذين المصطلحين الصوفيين : الفوائد والزوائد .

ولكن من هو الولي : هل يسير محمد بن المبارك خطوة جريئة سنها في القرنين الثالث والرابع ،

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر : ج ٩ ص ٢٩٨ ، والشعراني : طبقات ج ١ ص ٥٥ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٢٩٩ .

فيخلع صفات الربوية على الولي الكامل . إننا نظفر منه بهذا النص : « من ادعى أنه من أهل الطريق ، ضعف عن فعل آدابها ، ولم يمت حتى يفتضح ، ومن عفى اسمه من أهلها ، لم يمت حتى تشد إليه الرحال » . عجباً... هل يتكلم هنا عن الغوث ، من عفى اسمه من بين الرجال - رجال الله... فلجأ إليه الرجال ، ولجأ إليه الجمهور هل هو السر الإلهي ، وتظهر عليه أوصاف الربوية إنه يصرح بهذا... « كم من يضرر دعوى العبودية ، ولا تظهر عليه إلا أوصاف الربوية (١) »... وهذا هو الولي الكامل . وحقاً... كان أبو عبد الله الصوري - محمد بن المبارك - سلفاً كبيراً لصفوة القرنين الثالث والرابع ، بل مبشراً بمذاهبهم .

#### ٥- أبو عبد الله الساجي : سعيد بن زيد : بدايات الطريق الصوفي الحقيقي :

وما لبث أن نجد بواكير التصوف في إحدى الثغور - ثغر طرطوس - في شخص أبي عبد الله النباجي - أو الساجي - سعيد بن زيد - وسنجد في هذا الزاهد ظاهرة جديدة ، وهي استخدام الآيات القرآنية - كمواقف الصوفية . وسيكون بهذا أيضاً سلفاً للحسين بن منصور الحلاج ، كما سنجد له أول محاولة لتفسير القرآن أو تفسير بعض الآيات تفسيراً صوفياً . ولقد تلمذ هذا الزاهد الكبير على يد سفيان الثوري والفضيل بن عياض وتلمذ عليه عدد كبير من الزهاد الشوام كأحمد بن أبي الخوارى وعبد الله بن خبيق ، ومن صوفية بغداد كأبي عبد الله - عمرو بن عثمان المكي (المتوفى عام ٢٩١) وأبي سعيد أحمد بن عيسى الخراز (المتوفى عام ٢٧٧هـ) (٢)

أما مذهبه : فقد بدأزهداً مجتاً يسير في نسق أسناده الثوري ، فينتطق بكلمات هي أقرب إلى مذهب الثوري . فيقرر أن هناك خمس خصال ينبغي للمؤمن أن يعرفها : الأولى : معرفة الله . والثانية : معرفة الحق . والثالثة : إخلاص العمل لله . والرابعة : العمل بالسنة . والخامسة : أكل الحلال . ويشرح هذه الخصال ، فيذكر أن من عرف الله ، ولم يعرف الحق ، فلا ينتفع بالمعرفة ، وإن عرف ولم يخلص العمل لله ، لم ينتفع بمعرفة الله ، وإن عرف ولم يكن على السنة ، لم تنتفعه المعرفة ، وإن عرف ، ولم يكن مأكله من حلال لم ينتفع بالخصال الخمسة أما إذا كان مأكله من حلال ، صفا له القلب ، فأبصر به أمور الدنيا والآخرة ، وأما إذا كان المأكل من شبهة ، فإن الأمور تشبه عليه بقدر مأكله . أما إذا كان مأكله من حرام ، فإن أمور الدنيا والآخرة تظلم عليه ، وإن كان مبصراً . إنه أعشى حتى يتوب .

(١) الشعرائي : طبقات ج ١ ص ٥٥ .

(٢) الفشيري : الرسالة ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٩ .

هنا . . . أبو عبد الله الساجي زاهد من زهاد المسلمين التقليديين ، ولكن ما يلبث أن يتجاوز هذا الزهد الخالص ، فيرى أن القلب هو كل شيء ، وأن الأمر ليس أمر جوارح - والصلاة والصيام خلقت لها ، إنها أمر قلوب ، ويضع هذا النص الخطير « القصد إلى الله بالقلوب ، أبلغ من حركات الأعمال كالصلاة والصيام ونحوها » .

أما بعد : أليس هذا بدء رفع التكليف ، أو اعتبار حركات الصلاة والصيام . . . في المحل الثاني ، إذا كان يسكن على عرشه الحقيقي ، وهو قلب الإنسان . إنه يذكر « من وثق بالله فقد أحرز قوته ، ومن حيى قلبه ، فلقد لقي الله ولا يشك في نظره <sup>(١)</sup> » .

وإذا وثق الإنسان بالله ، واستوى عنده منعه وعطاؤه . وهو يستشهد هنا بشيخه الفضيل بن عياض ، تمنى لقاءه - تمنى انتهاء الحياة الأرضية . فيقول لأحمد بن أبي الخوارى « تدرى أى شيء : قلت البارحة والبارح الأول ؟ قلت : قبيح بعبد ذليل مثلى يعلم عظيماً مثلك ، لا يعلم ، إنك لتعلم أنى لو خيرتني بين أن يكون لى الدنيا - منذ يوم خلقت ، أتمم فيها حلالاً لأسأل عنها يوم القيامة ، وبين أن تخرج نفسى الساعة ، لاخترت أن تخرج نفسى الساعة . . . أما تحب أن نلقى من يطيع . . . » إنه يسمع نداء الله لموسى ، يا موسى إذا انقطعت إلى فقد وصلت « وقد انقطع له ، ولكنه يخشى . . . الخاتمة . فيصيح « واخطره <sup>(٢)</sup> » .

وهنا وضع أبو عبد الله الساجي . . . كل شيء بين يدي الله ، محترقاً بالحب الإلهي ، لا يكره الموت . . . بل يحبه . . . بل يستخدم هنا كلمة الأبدال . . . ويجدد الأبدال إنهم أحبوا الله ما يشاء الله ، فإنه من أحب الله ، لم ينزل به شيء من مقادير الله وأحكامه إلا أحبه . والموت هو السبيل إلى الحبيب إلا كان آبقاً . . . ومن خطرت الدنيا بباله حجب عن الله <sup>(٣)</sup> .

إذا لم تكن الأعمال - الأعمال الظاهرة من الشريعة هي أساس زهد أبي عبد الله الساجي . إن مقامات التصوف وأحواله أهم بكثير في الوصول إلى الله من هذه الحركات الظاهرة - فالرضا أهم من كل هذه الحركات والأعمال وكذلك المعرفة بل المعرفة هي النعيم ، وهي في هذه الدنيا ، ثم تمتد بعد الموت يقول « أطيلوا بالنظر في الرضا عن الله ، وتساءلوا عنه بينكم ، فإنكم إن ظفرتم به بشيء علوم به الأعمال كلها » . أما المعرفة فإنه يستخرجها بتأويل من القرآن ، فيفسر الآية القرآنية « وتعبها أذن واعية » أى أذن عقلت عن الله . ويفسر « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » بأنها المعرفة بالله ، وفي هذه

(١) أبو نعيم : الحلية ج - ص =x ، =xx .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣١١ .

(٣) نفس المصدر : ج ٩ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

المعرفة النعيم . ويفسر « يسقون من رحيق » بأن الله قد عجل لهم في الحياة الدنيا ، الخلاوة في عبادة الله ، ويتصل ذلك إلى يوم القيامة ، ثم ينتهي بهم الأمر إلى الجنة ، لأن أول العطية كان ابتداؤها في دنيانا هذه .

وليست الجنة - بالمعنى الديني هي الغاية ، ولكن حب الله هو جنة الزاهد ، ويستشهد بقول موسى : « وعجلت إليك ربى لترضى » ، وهى صيحة سيطلقها الحلاج ، والسياف يتقدم إليه ليقته - بعد أن قطعت يده ورجلاه . ولقد سبقه أبو عبد الله الساجى فى إطلاقها وعندها « ينتظم الثواب والعقاب » . ولا بأبه الزاهد إذن بجنة ولا نار ، ولا وعد ولا وعيد . ولا يستشعر الصوفى بالخوف إن الخوف متصل بالأعمال « إن من عبد الله على حبه أشرف عند الله من عمل على خوفه » وقد ذكر الله درجة الخائفين ، وأمسك عن درجة المحيين ، لأن القلوب لا تحمل ذلك ، كما أمسك عن درجة النبيين ، وأظهر ثواب المتقين .

ثم يعود إلى القرآن . . ويحاول تفسيره ، فذكر الله - عبدنا وعبادنا - هذا وهذا وذلك ، وأثنى عليهم « شاكرراً لأنعمه اجتهابه وهداه » « أخلصناهم بخالصة ، ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » وقال : « هذا ذكر ، وإن للمتقين حسن مآب ، جنات عدن » . فهنا يقرر الله أن ذكره وثناءه عليهم أى على الأنبياء أتوب من صواب المتقين . إنه ذكر صفار الأمور الجنة ، ولكن لم يذكر ثوابه العظيم ، إنه أخفاه ولم يبينه حيث لا تحمله القلوب . فقال : « ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » ولم يبين ما هى قرة العيون هذه . ثم قال « ولدينا مزيد » . . . وهى للمحيين ، وستكون المزيد فيما بعد - عند مفسرى الصوفية ، تجلى الله لهم ورؤيته - وذلك حين يفسرون مزيداً - أو الآية الأخرى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

ولذلك يقول أبو عبد الله الساجى : إنه لو كانت له دعوة مستجابة ما سأل الفردوس ، ولكن يسأل الرضا - إن الرضا هو « تعجيل الفردوس الأرضى » وهو هناك أيضاً أعده لهم فى الآخرة . إنه ملك أفاضه على من اصطفى وهؤلاء هم المصطفون . لم تكن هناك أعمال تقدمت شكرهم عليها ، ولا شغفاً لهم عنده ، ولكنه كان ابتداء منه ، وقد انتهى الأمر . . . ونزل القضاء « قد فرغ الله مما أرادوا . . . أسعد بالعلم من قد عرف (١) » .

وبعد . . . فقد كان أيضاً أبو عبد الله الساجى من متقدمى رجال التصوف ، لقد فتح الطريق لمن بعده ، وكان أثره كبيراً فيمن تلاه من رجال التصوف الخالص .